نور الدين النبهاني

العالقون زمن كورونا

رواية

دار السمة للنشر الإلكتروني

نور الدين النبهاني

اسم الكتاب: العالقون في زمن الكورونا

اسم الكاتب: نور الدين النبهاني

نوع العمل: رواية

الرقم الدولي EBIN: 16-1-209-230112

الناشر: دار بسمة للنشر الإلكتروني

الطبعة الأولى: 2023م / 1444هـ

دار بسمة للنشر الإلكتروني

00212771814934

دار بسمة للنشر الإلكتروني (المغرب)

Basma24design@gmail.com

المملكة المغربية

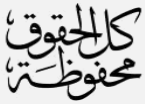

دار بسمة للنشر الإلكتروني تُقدم جميع خدمات النشر، ولا تتحمّل أي مسؤولية تجاه المحتوى، إذ إن الكاتب وحده هو المسؤول عن نتاج فكره.. كما لا يجوز بأيّ صورة نشر أو إعادة طبع أي جزء من هَذَا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله عَلَى أي نحو كَانَ، أو بأيّ طريقة سواء كَانَت إلكترونية أو بالتصوير أو خلاف ذلك، إلاّ بموافقة خطية من الناشر أو المؤلف. ©

العالقون زمن كورونا

رواية

نور الدين النبهاني

دار البسمة للنشر الإلكتروني

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى سميرة..

الَّتي بدونها لا يحلو السمر...

العالقون

العالقون زمن كورونا هم مجموعة من المواطنين وجدوا أنفسهم عالقين بين السماء والأرض.. لا هم من أهل الشرق ولا هم من أهل الغرب..

سجناء في بلد غير بلدهم.. في سجن بلا أسوار، ولا جدران، ولا أبواب.

فجأة أصبحت الحدود مغلقة بين الدول، والأبواب موصدة بين الأُسَر.. لا عبور.. لا تنقُّل.. ولا زيارات.

وظل العالقون زمن كورونا حائرين في أمر تصنيفهم.. لاهم سجناء، ولا هم أسرى، ولا هم في خانة الرهائن، ولا هم في سجل اللاجئين! محاصرون برًّا وجوًّا وبحرًّا؛ في الغُربة ومع فيروس كورونا (كوفيد 19).

هذه الجائحة الَّتي حاصرت الكل، داخل البلد وخارجه، وجعلت بعضهم عالقًا كأيِّ امرأة مُعلَّقة تركها زوجها في وضع شاذ؛ لا هي تُعدُّ مع المتزوِّجات فتستريح في عيشها، ولا هي تُعَدُّ مع المُطلَّقات فتُحرَّر

من الغربة، والإقصاء، وفترة الحجر الصحيِّ الَّذي دام شهورًا ما بين أواخر شهر مارس وأوائل شهر يونيو.

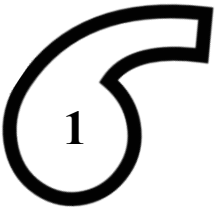

أسندت ظهرها إلى كرسي الحافلة الَّتي ستنطلق إلى إسبانيا قُبَيل ساعات من إغلاق إيطاليا لحدودها، أغمضت عينيها مُسترجعة بذاكرتها كل ما جرى لها بكثير من الحسرة والندم.

جاءت لإتمام إجراءات أوراق الإقامة بعد زواج ابنها بإيطاليا وحصوله على الجنسية، لكن زواج الشراكة الَّذي بين ابنها والإيطالية جعلها تشعر بالإحراج؛ كل شيء بينهما مناصفة وأيُّ شيء يشتريانه مشترَكَيْنِ في ملكيته.. لكلٍّ منهما نصفه.

فأصبحت تشعر كأنها تعيش معهما نصف حياتها، نصف جسد، نصف روح، نصف متعة.. لذلك كانت تجلس في نصف مكان، وتأكل نصف وجبة، وتترك النصف الآخر لِكَنَّتِها حتى لا يقال تأكل لقمتها أو تسرق لقمتها من فمها، لكن فيروس كورونا حَلَّ بِغَير ميعاد، وبَعْثَر كل الأوراق، وأربك كل الحسابات.

جلست وحيدة تفكر وتعيد الحساب وتقلب المسألة على كل الوجوه والنتيجة واحدة؛ أن تعيش في الحَجْر الصحيّ مع كِنَّتها في بيت واحد رغم أنَّها لا تطيقها ولا تطيق الحديث معها إلى حين حصولها على الإقامة، مقدور عليها أن تعيش مع نصف ابنها وهو بلا شخصية ولا إرادة ولا قرار! قد تبتلعها بجرعة ماء، لكن أن تُدفن في إيطاليا في حال وفاتها بسبب كورونا مستحيل، أن تقضي رمضان مع امرأة لا تصوم غير ممكن؛ كيف لامرأة عاشت طول عمرها في المغرب وفي الأخير تُدفن في غير تربته.. كيف لامرأة بدأت تصلّي منذ سن السادسة وصامت مع البلوغ، وفي الأخير تشارك الطعام مع امرأة تشرب النبيذ في رمضان! لا وألف لا.

لذلك حجزت في آخر حافلة لعلَّها تدخل المغرب برًّا بعد إغلاق الحدود الجوية.

في فرنسا التحق بالحافلة جُندي متقاعد من الَّذين شاركوا فرنسا حروبها، اسمه إسماعيل هاربًا من الحجر الصحيّ هو الآخر.. وسلوى امرأة أنهت للتوّ بعض الفحوصات الطبية.

بعد جلوسهما بجانبها تبادلت معهما التعارف، ثُمَّ الكلام، والطعام، والأسرار خلال الطريق.

وهم على مشارف الميناء بإسبانيا فوجئ الجميع بإغلاق الحدود البرِّيَّة، والعديد من المغاربة متجمهرون في الميناء، وبعضهم أمام القُنصليَّة المغربية...

أبلغت أبناءها في المغرب عبر الهاتف أنَّها عالقة بإسبانيا، وكل الحدود مغلقة، والسفارة طلبت منهم الصبر، وقدَّمَت لهم وعودًا.. حتى ابنها بإيطاليا يتصل بها مُستفسِرًا عن حالها ووضعها؛ بعصبية أجابته:

"اهتم بحالك ولا تحمل همِّي؛ فأنا قادرة على تدبير أمري.. غصتك يا ولدي ما زالت تتدحرج بين صدري وحنجرتي.. فلا فرحْتُ بك وأقمْتُ لك عُرسًا ككلِّ الأمهات.. ولا أنت تزوَّجْتَ بنتًا بِكْرًا وفرحْتَ ككلِّ العرسان.. ولا حافظْتَ على كرامتك وعشْتَ في بيتك سيِّدًا.. اسمع، إذا لم تنجب أطفالًا فاعلم أن الله يحبك ويعطيك فرصة جديدة لتغيير مسار حياتك.. آلو.. آلو...".

انقطع الاتصال.. واعتاد ابنها كلما أثقلت عليه في الكلام وأسمعته ما لا يرضاه.. وكلما أجهزت عليه بكل ما في صدرها من كلمات وقدفتها دَفعة واحدة في أذنه عبر الهاتف أن يقطع الاتصال؛ وكأنه عطب في شبكة الاتصال.. ما زالت الحاجَّة مصدومة في ابنها آخر العنقود!

الحاجَّة الغالية امرأة محتجبة، إذا نظرت إليها لا تستطيع تحديد سنها بسبب النعمة البادية عليها؛ بيضاء البشرة، وبشرة وجهها صافية، بل ناعمة ونضرة، تزيدها أنوثة وحلاوة رغم كبر سنها، معتدلة القامة، بعيون خضراء تشع منهما الطبيعة باخضرارها، تجمع بين ملامح أهل الشرق ومواصفات أهل الغرب، مغربية التفكير، أوروبية الهندام.. تفتخر كثيرًا أنها من سلالة القراصنة؛ فهي حفيدة رئيس القراصنة النازحين من الأندلس أيام سقوطها واستقرارهم بمدينة سلا.

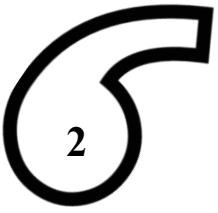

مضت ثلاثة أيام ولا جديد.. فقط وعود.. صبر.. انتظار.. والهواتف لا تتوقف عن الرنين.. والمُدَّخَرَات تتبخر مع المصروفات.. ولا أمل في الأفق.

في الصباح الباكر لليوم الرابع طَرَقَ إسماعيل الجندي المتقاعد باب غرفتها بالفندق طرقات سريعة ومتتالية مُبلِّغًا إيَّاها أن شبابًا من الفقيه بن صالح يقترحون السفر بالباخرة إلى سبتة، ومنها العبور إلى المغرب عبر باب سبتة. استحسنت الفكرة ووافقت عليها دون أن تهتم بثمن الرحلة المُضاعف.

في الباخرة انفرجت أساريرهم، وعرفت الفرحة طريقها إلى قلوبهم بعد يأس وقنوط.. وتحولوا إلى مجموعات تلقائيًّا.. وكانت مجموعتها بقيادة الجندي المتقاعد إسماعيل تضم سلوى، ومولاي أحمد –وهو محامٍ مشهور كان في رحلة سياحية بأوربا– وسهام طالبة بمعهد فرنسي تعرَّفوا على

بعضهم في الفندق، إضافة إلى الحسن وهو شاب من الفقيه بنصالح انضم إليهم في الباخرة وائتمنهم على متاعه حتى يمرح قليلا مع رفاقه على سطح الباخرة.

في أثناء إجراءات العبور بعد نزولهم من الباخرة تكلَّف مولاي أحمد المحامي بتعبئة الاستثمارات الخاصة بهم. انطلق إسماعيل يستطلع قرب الميناء باحثًا عن وسيلة نقل.. وبقي الحسن مع النساء والأمتعة.

بكثير من الارتياح سجدت الغالية وقبَّلت الأرض قائلةً:

"الحمد لله أننا بأرض مغربية؛ صحيح أنها تابعة للإسبان تحت حكم ذاتي، لكنها تبقى مغربية.. حتى أني إذا مِتُّ هنا لن يجد أبنائي وأقاربي صعوبة في زيارة قبري" .

التحق بهم إسماعيل رفقة طفل قاصر يستعجلهم بالإسراع مُقدِّمًا لهم الطفل:

"هذا أيوب، طفل مغربي سيقودنا إلى فندق مناسب وملائم، وصاحبه مغربي –وأشار بيده– والفندق قريب من هنا ".

وهم في طريقهم إلى الفندق ظلَّت الغالية تستنطق الطفل –وتلك عادة ورثتها عن والدها الَّذي كان ضابطًا في الشرطة القضائية بسلا–

حتى عرفت منه كل ما تريد، وهو يحكي لها بكل طلاقة وعفوية أنه من تطوان، وحين انفصل والداه واختار كل منهما حياته مع شريك آخر انتقل إلى سبتة عند عمته ليساعدها في تجهيز السِّلع للمُهرِّبين والمُهرِّبات، لكن الحركة تضاءلت والرواج التجاري انعدم منذ إغلاق المعبر.. فجأة توقف الجميع عن المشي وبعضهم نظر إلى بعض متبادلين النظرات.. وفي عيونهم ألف سؤال.. أما أيوب فظل يحكي ويحكي – دون أن ينتبه لما حلَّ بهم– عن عدد المغاربة العالقين هنا الذين أصبحوا ينامون في المسجد بعد نفاد نقودهم، وبعضهم مشرد في أزِقَّة المدينة، والكل يتابع حكاياه في صمت.

في بهو الفندق الرئيس استقبلهم مالك الفندق بحفاوة كبيرة مُرَحِّبًا بهم، وفي أثناء الحديث أبلغهم أنَّهم آخر فوج لآخر رحلة؛ حيث إن وزارة النقل في حكومة مدريد أصدرت قبل قليل قرارًا بإغلاق ميناء سبتة في وجه الحركة الملاحية ابتداءً من الغد إلى أجل غير مسمى.

للمرَّة الثَّانية في ظرف ساعة يتبادلون النظرات.. نظرات الصدمة في صمت وهم يتلقون الخبر كصفعة مفاجئة.. ويرون كل المنافذ تُغلق برًّا، وبحرًا، وجوًّا.

تابع صاحب الفندق حديثه بنشوة كبيرة:

"لقد قررت ما دام أنكم آخر فوج فسأكون معكم كريمًا آخر كرم.. سأمنحكم تخفيضًا أربعين في المائة عن كل غرفة، وكُسْكُس مصحوب باللبن الطري يوم الجمعة مجانًا؛ أتدرون لماذا؟ لأنكم ستمكثون عندنا مدة طويلة.. فمرحبًا بكم في بيتكم وبين إخوانكم".

كانت خيبة الأمل مسيطرة على وجوههم.. وما عاد تبادل النظرات يُجدي، والعيون تصرخ من الحيرة والحسرة.

في الأسبوع الأول وجدوا صعوبة في التَّكيُّف مع الوضع.. والتأقلم مع قَيْدَيْ الزمان والمكان.. فكانوا كل صباح يجتمعون في البهو بعد تناول فطورهم.. يتبادلون أطراف الحديث ويتابعون آخر الاخبار.. ثم يشتغل المحامي عن بعد متصلًا بمكتبه، ومُتتبعًا أشغاله عبر الحاسوب.. وتتفرغ النساء للاتصال عبر الواتس آب بعائلاتهن. أما إسماعيل والحسن فيخترقان الحجر، ويخرجان لمتابعة ما يجري، ويتواصلان مع باقي العالقين بالمدينة من المغاربة الذين تقطَّعت بهم السبل جرَّاء الجائحة.

بدأت الحاجَّة الغالية تستأنس بالمكان.. وتدخل المطبخ للتعرف على الطباخين ومساعدتهم في الطبخ بعد استنطاق كل واحد منهم على حدة عن اسمه وأصله وقصة حياته.. وأحيانًا تصعد إلى سطح الفندق رفقة إحدى الطباخات للاستمتاع بمناظرومظاهر المدينة.. والهاتف بيدها

لا يتوقف عن الرنين.. وهي تسجل الفيديوهات للتوثيق وتلتقط الصور وتبعثها إلى أبنائها وأقاربها.. كما ترسل (الأوديو) تلو (الأوديو) كلما جدَّ جديد إلى أعضاء الجمعية الَّتي تترأسها.

قُبَيل الغروب عند نهاية الأسبوع الثاني بسبتة، وهم في قاعة الاستراحة يتسامرون.. دخل عليهم إسماعيل قادمًا من أقصى المدينة يلهث وينهج.. وأنفاسه متلاحقة كقطار بُخاري يلهث من طول المسافة.. ويحمل في جَعبته أخبارًا متنوعة و قرارات تخصه وحده..

انطلق يحكي دون مقدمات والكل يصغي إليه:

"الأخبار متدفقة اليوم وبلا توقف.. سنبدأ بالأسوأ.. تمكن الحرس المدني من اعتراض أربعة شباب مغاربة.. حاولوا السباحة من شاطئ سبتة نحو الشواطئ المغربية.. واعتقلوهم وذهب الحسن إلى مخفر الشرطة لمعرفة أخبارهم لأنَّ أحد المعتقلين منهم صديق له، والخبر الآخر توفيت امرأة مغربية من النساء العالقات بسكتة قلبية وستدفن للأسف في سبتة بدل مدينتها طنجة.. والخبر الجميل هو قرار السلطات المحلية وضع المغاربة العالقين بسبتة في مركز رياضي جُهِّزَ لهذا الغرض إلى حين فتح الحدود، وقد سُجِّلْتُ فيه.. قاطعتْه الحاجة الغالية:

"أتريد أن تغادرنا.. أن تتخلى عنا.. ونحن في منتصف الطريق؟"

تردد كثيرًا وهو ينزف داخليًّا همًّا و إحراجًا.. بدأ مُتلعثمًا ، فمرتجفً، وأخيرا فصيحًا.. صريحًا وقال لها:

"ما باليد حيلة، يا حاجَّة، أنا جندي متقاعد.. معاش راتبي هزيل ..لا يسمح لي بأن أقيم في فندق إلَّا ليلة واحدة.. لذلك أخرج كل صباح للتسول.. كنت أتسول قرب كنيسة سان أنطونيو.. وأشحت أمام مسجد مولاي المهدي، وأمد يدي قرب حديقة سان أمارو.. مرورًا بقلعة ديسنارغادو.. وبجانب النصب التذكاري لهرقل.. أجوب المدينة شرقًا وغربًا مستعطفًا المسيحيين والمسلمين لأجمع ثمن المبيت في الفندق ..فأنا في محنة.. وقد تقطعَتْ بي السُّبُل.. ومحنتي لا يعلمها إلَّا الله".

أخرست الصدمة الجميع.. وشلَّت المفاجأة تفكيرهم وأصبح لسانهم عاجزًا عن التعليق أو التعبير.. وغزاهم التأثر وغَيَّرَ ملامح وجوههم.. طأطأ إسماعيل رأسه وهو في طريقه إلى غرفته لجمع أغراضه.. أوقفه المحامي مولاي أحمد رافعًا إحدى يديه بنبرة حزينة موجهًا له الخطاب:

"لوكنت قد فاتحتنا بالموضوع منذ البداية كنا أغنيناك عن السؤال وعشت بيننا معززًا مكرمًا، لكن اعتبارًا من اليوم لا تسول.. ولا مدًّا

لليد، كل مصاريفك على حسابي.. أنا ميسور ولله الحمد، وأملك بطاقة بنكية دولية .. وقد سبق لي أن ناقشت الموضوع مع الحاجة الغالية.. وكان قرارنا التسديد عن كل من تَعذَّر عليه الدفع. اسمع.. سنظل رفقة و صحبة وأسرة واحدة حتى نعود إلى بلدنا المغرب ".

حاول إسماعيل أن يتمتم بدعوات صالحة لهما

"لا داعي للدعاء.. نحن أسرة و سنظل متماسكين حتى نخرج من هذه المحنة".

بهذه الكلمات طمأنته الحاجَّة الغالية.. حتى لا يستمر في الدعاء ويثير الانتباه وهم في بهو الفندق.. هنا ضاعت الكلمات وخلفت وراءها الصمت، ولا شيء غير الصمت.

وسط هذه الأجواء دخل الحسن.. أحس أنَّ الجو متوتر وآثاره بادية على الوجوه.. قبل أن يستفسر عن حالهم.. سأله إسماعيل عن مصير الشباب، كان جوابه وهو يتأمل الوجوه الحزينة:

نُقِلوا إلى مكان اسمه بلاصا دي طورو، وهو مكان مخصص لإيواء المغاربة العالقين.. أنت أكيد تعرفه".

لم يعلق إسماعيل على الخبر وليست تلك عادته.. بل انسحب في صمت متجهًا إلى غرفته.

إسماعيل رجل عسكري.. متشبع بالأفكار العسكرية، طويل.. متين ..تعود أصوله إلى نواحي مدينة الجديدة.. يمشي مستقيمًا بلا مساعدة رغم كبر سنه؛ حيث تجاوز الثمانين من عمره.. وما يزال شبابيُّ القلب.. حديديُّ الجسد.. كثير الحركة والحكي والجدال.. أغلب ملابسه رمادية شبه عسكرية.. لكن مشيته عسكرية.. لا يعاني من أيِّ مرض سوى شفتين تتنملان و ترتجفان من كثرة الحكي.. يحكي كثيرًا عن جاكلين – وهي امرأة فرنسية تزوج بها أيام الحرب وماتت– أكثر من حديثه عن المغربية الَّتي أنجبت له أطفالًا وما تزال على ذمته، يتميز بعادات طريفة، ومن عادته أنه إذا ضحك كثيرًا يضرب فخده بكف يده دليل انشراحه ..وإذا غضب يظل ينظر يمينًا وشمالًا كأنه يفكر في الهروب أو في الهجوم!

لم يقتنع الحسن بانسحاب إسماعيل دون تعليق، فتلك ليست عادته.. سيطرت هذه الملاحظة على تفكير الحسن وهو يتابع سير إسماعيل المنسحب بانكسار!

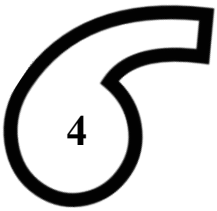

اعتاد الكل خلال الحجر بالفندق أن الحاجَّة الغالية تصحو باكرًا، وبعد تناول فطورها تجلس في بهو الفندق الرئيس الفسيح لمراقبة نُزلاء الفندق وملاحظة أزيائهم المختلفة، والتَّسلِّي بمتابعة كل زوَّار الفندق الداخلين إليه والخارجين منه.

صباح ذلك اليوم غيَّر إسماعيل من عادته ولم يخرج.. بل اتَّخذ له مكانًا قُرب الحاجة الغالية.. وظلَّا يتبادلان أطراف الحديث وهي تستنطقه كعادتها عن مظاهر ومآثر مدينة سبتة.. وكان يحكي لها بإسهاب إلى أن وصل إلى مرحلة التسول.. هنا توقف عن الحكي.. أحست الحاجة بإحراجه فقالت له:

"كلٌّ منَّا يخفي في أعماقه قصة مقرفة أو حزينة، ويخفيها عن العيون .. منذ مدة كان يحكي لي ابني حسام –وهو طبيب في مستشفى عمومي– أنَّه لم يزر بيته، ولم يرَ ابنته الوحيدة، ولم يلتقَ بزوجته أكثر من شهر خوفًا عليهما من العدوى بفيروس كورونا.. وبسبب ذلك يُقيم في

فندق قريب من المستشفى.. كان يحكي لي وهو يبكي كطفل صغير حُرِمَ من لُعبته.. يحكي وأنا أبكي.. أبكي عليه، وعلى حظي، وعلى وضعي الحالي.. يحكي وكلانا يبكي وكأننا في بيت عزاء.. كل صباح يتصل بي.. وكل صباح أدعو له لأنه في الصفوف الأولى لمجابهة الجائحة ..أدعو له وأدعو لنا؛ فكلانا في مأزق ونسأل الله السلامة".

التحقت بهما سلوى وسهام، بعد التحية والسلام جلستا تصغيان إلى الحديث الَّذي يدور بين الحاجة وإسماعيل الَّذي تابع الحكي عن مدينة سبتة:

–"هذا الفندق الَّذي نقيم فيه تصنيف ثلاث نجوم وهناك فنادق أخرى تصنيف خمس نجوم، ذات عدَّة طوابق وعدَّة مسابح.. لكنها اليوم خالية على عروشها بسبب الجائحة وبسبب كلفتها الغالية.. كما أن هناك سيَّاح من عدة جنسيات عالقون مثلنا، وقد رأيت ذات يوم بين السائحات واحدة تشبه جاكلين.. لكن جاكلين تفوق نساء العالم بابتسامتها الساحرة، دون الحديث عن جمالها و قوامها".

قاطعته الحاجة الغالية بعصبية:

"دعك من الجاكلينات ومن يمشي خلفهن.. وتابع حديثك عن المدينة ".

ضحكت سلوى و سهام بينما ابتسم إسماعيل و تابع حديثه:

–"يبدو أن الحاجة أصبحت عندك حساسية من النساء الأوربيات! المهم.. عمال المصانع هنا تم تسريحهم بعد إغلاق المعبر والميناء.. لكنهم يتوصلون بإعانات من السلطات أسبوعيًّا.. آه نسيت.. هل تعلمون أني صليت هنا في أربعة مساجد وهم؛ مسجد سيدي امبارك، ومسجد مولاي المهدي، ومسجد الأمير، ومسجد... ومسجد.. نسيت اسمه ".

سهام وسلوى تصغيان إليه بكثير من الدهشة والاستغراب لأنهما لم تتجاوزا عتبة الفندق منذ دخولهما إليه ولا يعرفان شيئًا عن المدينة!

قاسمهما المشترك أنَّ سلمى وسهام تعودتا على العيش بعيدًا عن الأضواء والتجمعات.. تثقان في الحاجة الغالية وتمشيان خلفها دون اعتراض..

سهام شابة تجاوزت العشرين بسنتين.. من طلبة المعاهد الفرنسية ..تقضي وقتها في التنقل بين هاتفها المحمول والحاسوب.. والسماعات في أذنيها منسجمة مع ما تستمع إليه.. هائمة في ملكوتها.. لا تهتم في

الغالب بما يجري حولها.. ومطمئنة على حالها ووضعها.. بعد أن اتصل والدها بالحاجة الغالية وأوصاها بأن تتكلف بمصاريفها واحتياجاتها إلى حين العودة.

أمَّا سلوى فهي امرأة أربعينية جميلة.. مليحة وسمينة.. وبدانتها تزعجها أحيانًا وترهقها، لا سيَّما بعد تواجدها هنا في وضع غير مريح ..ولأنها مُطلَّقة تتحاشى المواجهة أو الصِّدام مع الرجال حتى لا يظنوا أنها فريسة سهلة.. وهي لبؤة شرسة تحمل حقدًا و كرهًا جمعتهما مع الأيام قطرة قطرة من ظُلم زوجها لها.. تتلقى علاجها بفرنسا من مرض تتكتم عنه، نقله إليها زوجها من خلال مغامراته في أثناء استقرارهما بفرنسا.. تركت ابنتيها عند والدتها في المغرب.. تزور فرنسا للعلاج ومتابعة إجراءات الطلاق بإحدى المحاكم الفرنسية.

وقف إسماعيل مستأذنًا الجميع مُعبرًا عن رغبته في الخروج.. فهو يعشق الهيام على وجهه في المدينة.. سائلًا إيَّاهن إن كُنَّ يرغبن في شراء شيء من المحلات.. نبهته الحاجَّة ألَّا يعود إلى عادته القديمة، وشَخَّصَتْها بيدها وهي تبتسم.. ابتسم هو الآخر ابتسامة خجولة ونفى برأسه و يده.. قبل أن يغادر شاهد مولاي أحمد قادمًا فتسمَّر في مكانه حتى

يسلم عليه، لكن مولاي أحمد حيَّاه برفع يده، وجلس غاضبًا، وأبلغهم أن صبيب الإنترنيت ضعيف في الغرفة..

مولاي أحمد رجل قانون مستقيم في سلوكه ومواقفه.. تجاوز الخمسين ببضع شهور، يعاني من داء السكري وضغط الدم.. لذلك فهو عصبي وسريع الغضب.. رغم ذلك فهو طيب القلب، يعين ويساعد دون تردد.. ينتمي لأسرة محافظة وعريقة تعود أصولها إلى الدوحة النبوية الشريفة. يحب أن يخلو بنفسه يتبع ريجيمًا قاسيًا ويشعر بالإحراج وهو يتنقل بين المائدة و المرحاض بين الفينة، والأخرى بسبب السكري الَّذي يعاني منه يشتغل كثيرا لدرجةٍ ينسى فيها أوقات الأكل والنوم.. وله مكانة مرموقة في المجتمع الرياضي البيضاوي..لانتمائه وتسييره لإحدى الفرق الرياضية بالدار البيضاء.

وفي ليلة ليلاء.. عند منتصفها بالتحديد.. وفي غفلة من عُمَّال الفندق والنزلاء انسلَّ الحسن بخطوات هادئة نحو باب الفندق.. فابتلعه الظلام واختفى في العتمة الَّتي تلف المكان تاركًا في غرفته رسالة.

اجتمعوا صباحًا على مائدة الإفطار بدون الحسن، لم ينتبه أحد لغيابه بعد الفطور، انغمس كل في برنامجه كعادتهم.. مولاي أحمد يعمل عن بعد متصلًا عبر الحاسوب بمكتبه.. والنساء يتواصلن مع أُسرهن عبر الواتس آب.. وإسماعيل يخرج مخترقًا الحجر الصحي.. يهيم في المدينة بدعوة البحث عن كمامة وأخبار طرية.

قبيل الغروب.. جلس مولاي أحمد يرتشف قهوته السوداء بدون سكر ويتابع الأخبار بحاسوبه.. فجأة انتفض واقفًا مرتبكًا و مذعورًا، رفع يده فوق رأسه يمسح الشعيرات القليلة بكف يده وينادي على الحاجة بصوت انتبه له الجميع وانطلقوا نحوه.

التفوا حول الحاسوب.. الحاجة.. سلوى.. سهام وبعض الفضوليين من النزلاء يتابعون.. يقرأون.. يستغربون من غرابة الخبر الذي يقول:

"تمكن شاب مغربي –ضمن المواطنين العالقين في مدينة سبتة من كسر حالة الطوارئ الَّتي تفرضها السلطات– من المغادرة سباحة إلى شاطئ الفنيدق ليلًا؛ حيث عبر الرصيف الحدودي لمعبر (تاراخان) وصولًا إلى الأراضي المغربية سباحة.. يتراوح عمره ما بين ثلاث وعشرين سنة إلى سبع وعشرين سنة، لكنه لم يكن مسجلًا في المركز الخاص بإيواء العالقين".

نظر بعضهم إلى بعض وتبادلوا النظرات في صمت وتفكيرهم في اتجاه واحد.. تساءلت الحاجة بصوت مرتفع:

"أيمكن أن يكون هو؟

وهي تنظر إلى مولاي أحمد الَّذي لم يستبعد الأمر بحركات رأسه.. نظر إلى الحاضرين ثم سألهم:

"مَنْ آخر واحد منكم رأى الحسن هذا الصباح؟"

لا جواب.. لا أحد..

مكث يبحث في هاتفه عن رقم الحسن.. اتصل به، لكن هاتفه خارج التغطية، ثم اتصل بإسماعيل يستفسره عن الحسن.. جاء الجواب مُخيبًا للآمال لا علم له ولم يره هذا الصباح، وطلب منه أن يسأل عنه كل أصدقائه الذين يعيشون في المركز..

في المساء عاد إسماعيل بخُفَّي حنين لا خبر، لا معلومة.. سألوا المسؤولين في الفندق لا خبر، لا إفادة! قرروا الدخول إلى غرفته رفقة المسؤولة عن الغرف.. فوق السرير كانت هناك رسالة موجَّهة إلى الحاجة الغالية والمجوعة...

فتحت الحاجة الغالية الرسالة بيدين مرتعشتين ولاحظت أنها مكتوبة بخط كوفيٍّ جميل.. يبدو أنه خريج مدارس التعليم العتيق.. هكذا خطرتْ الفكرة في بالها.. ثم انطلقت في قراءة الرسالة:

"إلى الحاجة الغالية وأسرتي الجديدة.. بعد التَّحيَّة والسلام: لم أتحمل هذا الوضع.. ولم أطق العيش فيه.. لذلك قررت المغادرة بعد أسبوع من التخطيط.. إذا فشلت سأتصل بكم من مخفر الشرطة.. وإذا نجحت سأتصل بكم من المغرب.. لكن إذا لم أتصل معناها أني مِتُّ.. فالمرجو من الحاجة الغالية أن تحتفظ بجواز سفري الَّذي ما زال بحوزة إدارة

الفندق بعد أن تدفع ما بذمتي.. وتعطيه رفقة بعض أمتعتي إلى والدتي، والعنوان ستجدينه مرفقًا بالرسالة".

جلست الحاجة الغالية تبكي وانضمت إليها سلوى وسهام.. في حين بقي مولاي أحمد يتصل بهاتف الحسن دون جدوى.. أما إسماعيل فظل واجمًا يفكر وعيناه جاحظتان من شدة الصدمة، وكأنه مسؤول عمَّا جرى.. أحس كأن كل السنين الَّتي قضاها في الحرب لم تفده أمام هذه الحادثة ..وكل الحنكة والخبرة وتجاربه في الحياة لم تُعِنه أمام هذه الواقعة!

الحسن شاب بشوش.. فارع الطول.. نحيف الجسم.. يميل لون بشرته إلى السُّمرة.. حافظ على بداوته رغم اشتغاله بإيطاليا.. لا يهتم بأناقة هندامه.. خدوم بحيويَّة وحركيَّة لا تتوقف.. خجول ..يتيم الأب.. يقيم في إيطاليا مع أخته وزوجها.. وهما اللذان ساعداه في الدخول إلى إيطاليا.. كما ساعداه في الحصول على عمل وعلى أوراق الإقامة. بعد إفلاس الشركة الَّتي يعمل بها تعذر عليه إيجاد عمل آخر.. ظل عاطلًا ثُمَّ تحول إلى بائع متجول.. لكن وصول كورونا إلى ميلانو.. جعله يفضل إقامة الحجر مع والدته بقريتهم.. فوجد نفسه عالقًا بسبتة.. ثُمَّ باندفاع شبابي غامر بحياته.

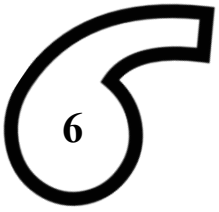

ترك غياب الحسن شرخًا في جدار هذه اللمة الأخوية الأسرية بدون قرابة دم.. فإحساسهم بالذنب تجاه الحسن تفاقم عندهم.. وكثر النقاش بينهم حول التقصير أو الإهمال أيهما دفع الحسن إلى المغامرة بحياته ..ربما الملل والسأم، أو ربما عجزه عن تسديد فاتورة الإقامة بالفندق لطول المدة!

صحيح هو لم يَبُح لهم بالسر، لكن هم بدورهم لم يسألوه مجرد سؤال عن وضعه وحاله..

تحول مساء ذلك اليوم إلى أضواء وصخب وهرج.. وانطلقت حركة غير عادية في محيط الفندق.. داخله وخارجه بمجرد ما أعلن الإعلام السمعي البصري بالمدينة عن حلول شهر رمضان، وجاء الإعلان مرفوقًا بالتهاني والتبريكات والدعوات.

أكثر من ساعة وهم يتشاورون... يتحاورون.. يتهامسون.. وأحيانًا يتصايحون، ثُمَّ يعودون إلى وتيرتهم الأولى.. فهم أمام معضلة وإشكال

معقد.. بعد الإعلان عن دخول شهر رمضان.. يتشاورون، هل يصومون مع إسبانيا باعتبار سبتة تابعة لها، أم ينتظرون إلى ما بعد الغد ويصومون مع المغرب.. الرجال يرون الصيام مع مسلمي إسبانيا والنساء يتشبثن بالصيام مع المغرب لأنَّ سبتة جزءٌ من تراب المغرب.. وكان هذا أول انشقاق داخل المجموعة منذ انتقالها من إسبانيا إلى سبتة.

إسماعيل ومولاي أحمد قرَّرا الصيام يوم الجمعة، وحين عَلِما أن الحاجَّة وسلوى وسهام قررن الصيام يوم السبت رغم اعتناقهم جميعًا نفس الدين، وحملهم نفس المذهب، واشتراكهم في نفس العقيدة، وعيشهم في نفس المدينة تشاورا في الأمر من كل الوجوه.. فعثر مولاي أحمد في حاسوبه على ثلاث فتاوي لأكبر علماء المسلمين يتفقون ويجمعون أنَّ المسلم عليه أن يصوم وَفق توقيت وإعلان شهر رمضان بالبلد الَّذي يقيم فيه.. وأطلع الحاجَّة عليه وواصل الحوار معها..

وحين اقتنعت بادرها مولاي أحمد بهذه الملاحظة:

"لم أكن أتوقع أنك متشددة إلى هذا الحد"

قاطعته قائلة:

"من أجل رمضان وكورونا غادرت إيطاليا.. وتخليت عن أوراق الإقامة خِفت أن يحل رمضان.. ويجمعني في الحجر مع زوجة ابني تحت سقف واحد، أحدنا صائم احتسابًا والآخر مفطر جهارًا، كيف أتعايش معها.. وهي لا تسمح لي بالدخول إلى مطبخها وكأنه مختبر خاص بها وأنا مولعة بإعداد كل ما تشتهيه النفس في رمضان ففضلت السفر، بل قل المغامرة، ولولا هذه المغامرة ما تشرفنا بمعرفتك".

كلمة مجاملة رقيقة صدرت من مولاي أحمد تجاه الحاجة.. جعلها تَقْترب منه.. وتُقَرب شفتيها من أذنه وتودعه سرًّا همسًا قائلة:

"لعلني سأحتاجك.. أفكر في إنشاء موائد الرحمان للعالقين هنا.. وأريد مشورتك القانونية وتواصلك مع السلطات وصاحب الفندق.. وأنا جاهزة للتمويل.. سواء باسمي أو باسم الجمعية الَّتي أترأسها.. وإسماعيل سيكون رهن إشارتك في هذه المهمة.. وسنخصص له راتبًا".

رن هاتف الحاجة الغالية.. لم تجب.. ولم تهتم.. لأنها مشغولة بالمشروع.. وتنتظر رأيه في الموضوع .. فاجأها قائلًا:

"مع الحجر وكورونا يصعب تحقيق هذه الأمنية في الظروف الراهنة".

ثم رن هاتف مولاي أحمد.. نظر إلى شاشة الهاتف وتمعن فيها مبتسمًا وقال للحاجة:

"أتعرفين من المتصل؟ لن تصدقي أبدًا.. إنه الحسن من المغرب!".

بلهفة طلبت منه أن يسرع في الإجابة مستعملًا مكبر الصوت.. طال الحديث بينهم.. تكلم مع كل واحد منهم على حدة وهو في غاية السعادة.. أخبرهم كيف خاض عدة مغامرات متسللًا.. متخفيًا ..مراوغًا، راجلًا.. راكبًا حتى وصل إلى بيت والدته بقريتهم.. وحين وصل أُلقي عليه القبض من طرف المقدم ورجال الدرك، وهو الآن يقيم في الحجر الصحي وسيخرج منه بعد أسبوع.. بشّرته الحاجة الغالية أن جواز سفره في أمان وستبعثه إليه مع أحد أبنائها إلى قريته حيث يقيم.. وطمأنته وطلبت منه أن يدعو الله ليرفع هذا البلاء والحجر عنهم..

وَدَّعَهُم متمنيًا لهم عودة ميمونة في أقرب الآجال.

لحظات مرت وهم يجترون الحديث عن الحسن، في أثناء ذلك ذهب مولاي أحمد إلى المرحاض.. وعند عودته أبلغته الحاجة الغالية أن هاتفه رن أكثر من مرة.. نظر إلى شاشة هاتفه.. ابتسم ثُمَّ ابتعد لإجراء المكالمة بعيدًا عن أعين الفضوليين وسارقي السمع لعلها مكالمة مهمة.. أما

الحاجَّة فاستغرقت في التفكير عن كيفية إنشاء موائد الرحمان.. في حين استمر الحديث بين إسماعيل وسلوى وسهام.. ولمَّا عاد مولاي أحمد إلى المائدة أبلغ الجميع أن بعض المغاربة العالقين في فرنسا قاموا بوقفة احتجاجية يطالبون بترحيلهم إلى المغرب.. ففرضت عليهم الدولة الفرنسية غرامات مالية بقيمة 135يورو لكل فرد ساهم في الوقفة الاحتجاجية!

قالت لهم سهام موضحة:

"في كل دولة عالقون من جنسيات مختلفة، ومواطنوها بدورهم عالقون في عدة دول.. وبعض العالقين تعرضوا للتشرد.. لأن قوانين بعض الدول معقدة وتحتاج إلى إجراءات ومساطر إدارية ومدة زمنية طويلة".

أجابها إسماعيل:

"ولماذا لا يتبادلون الأسرى فيما بينهم.. ويحلون المشكلة!"

ضحك الجميع من مصطلحاته العسكرية وقال له مولاي أحمد:

"والبّا إسماعيل نحن عالقون.. عالقون ولسنا أسرى! "

تدخلت الحاجة الغالية معبرة عن عدم رضاها:

"عالقون، أسرى، سجناء، تختلف الأسماء والمعاناة واحدة ،الحرمان من الحرية ، حرية التحرك والتنقل بحرية"

بادرها مولاي أحمد:

"حتى لو كنت في المغرب كنت ستخضعين للحجر الصحي وتمكثين في بيتك، فلا خروج".

قاطعته الحاجة:

"إحساس عن إحساس يختلف.. وأنت في بلدك وفي قلب بيتك وبين أهلك وجيرانك، ليس كإحساسك وأنت عالق ومعلق، تتجاذبك الغربة والحسرة والانتظار..."

صاحت فيهم سلوى:

"لا تحدثوني عن الإحساس، إحساس الأمومة يجتر داخلي، اشتقت إلى حضن أمي، وعناق ابنتيْ، والمرض ينخر ذاتي وضياع الوقت ليس في صالحي، وهنا الليل طويل، ويطول في غرفنا أكثر من ساعاته، لا العيون

تعرف النوم، ولا النفوس تعرف الراحة، ولا القلب يطمئن، والوساوس تأخذنا يمينًا ويسارًا كورقة في مَهبِّ الريح"

أفرغت ما في صدرها، أحست ببرودة في جسدها، واضطراب في أعصابها وخفقات في قلبها، فانسحبت من مجلسهم، وذهبت إلى غرفتها لتتناول دواءها، وتركت خلفها الأسى والحزن.

نظر بعضهم إلى بعض، دون النطق بأيِّ كلمة، لكن نظراتهم هذه المرة كانت تختلف عن سابقاتها.

رن الهاتف هنا وهناك، فانكبَّ كل واحد على هاتفه، وانساق كل واحد إلى عالمه، وانشغل بما لديه، وهم قابعون في مجلس واحد، وساد الصمت بينهم وأصبح سيد الموقف.

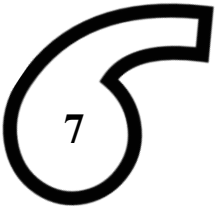

غابت شمس ذلك اليوم على خبر حزين، أرخى بظلاله على أرجاء الفندق وهو يمر عبر الوشوشة، والخبر هو وفاة عم سهام بفيروس كورونا كوفيد19 بعد إصابته به في مدينة الدار البيضاء..

فقد توصلت الحاجة الغالية بالخبر من والد سهام، فأبلغت الجميع هَمْسًا ما عدا سهام، في انتظار الوقت المناسب لتبليغها.. لكن لمَّا سمعوا بكاء سهام وصراخها علموا أن الخبر قد وصلها..

لقد توصلت سهام بعبارات التعازي عبر الواتس آب من زملاء لها وأصدقاء قدموا لها التعازي في وفاة عمها، فدخلت في حالة من الهستيريا.

هرول الجميع نحو غرفتها، والتفوا حولها مساندين ومواسين، وهي تحكي وتبكي، تبكي وتحكي لهم عن عمِّها إدريس، رجل أمن، شهيد الواجب، أب لثلاثة أطفال، أقرب الناس إلى قلبها، وتعلمت منه الاستقامة والانضباط.

كان إسماعيل ينظر ويستمع إليها، وفي عينيه وميض ابتسامة، فكثيرًا ما كان يعجبه سماعها وهي تناديه: عَمُّو إسماعيل، عَمُّو إسماعيل، بصوتها الرخيم والمحتشم، فيشعر بعذوبة في أذنه، وتمناها لو كانت ابنته، كان سيفتخر بها، مهندسة قناطر وإنشاءات، وكلها حياء وأدب، لا صباغة تلطخ بها وجهها، ولا طلاء تطلي به أظافرها.. طبيعية ومتواضعة بدل البغال الَّذي أنجب، ولا أحد منهم حصل على شهادة عالية، وأثلج صدره ورفع هامته به بين ساكني قريتهم!

ما أجمل أحلام اليقظة لو تتحقق.. وتنقل صاحبها من عالم إلى عالم، ردَّدها مع نفسه عِدَّة مرات...

اقترح عليهم أن يقيموا له صلاة الغائب، لكن الفكرة لم تحظَ برضى الجميع لانشغالهم بسهام ومواساتها.. فابتلع ريقه ولعابه وانكمش كعصفور فقد جناحيه.

ذات مساء جاء إسماعيل ينهج ويلهث، وأنفاسه متلاحقة كعادته كلما عاد إليهم يحمل أخبارًا، قادهم إلى مكان قصي في البهو، وراح يحكي لهم همسًا، يكاد يكون وشوشة وبين الفينة والأخرى يلتفت إلى اليمين واليسار، وإلى الخلف، ليتأكد أن الخبر لم يتسرب عبر التنصت.. وكلما دخلوا معه في جدال، حاول إقناعهم بكل السُّبُل...

كان يحمل لهم خطة مُحكمة ومَضمونة للهرب من سبتة والتسلل إلى المغرب في عملية لن تستغرق أكثر من ثلاثين دقيقة بالقارب عن طريق البحر قبيل السحور بساعة.. لكن الحاجة الغالية انتفضت واقفة ومنفعلة وحسمت الأمر معه، بل ومعهم جميعًا معلنة:

"أنا الحاجة الغالية، مغربيةُ الصُّلْبِ والرَّحِمِ، زرتُ الكعبة مرتيْن.. مرَّة حجًا ومرَّة عُمرة، ولي بيتان؛ بيت في سلا وبيت في فاس، ولي أصهار وأحفاد، ميسورة ولله الحمد، مزهوة بميراثي وذريتي، وأجود على الضعفاء بفضله وكرمه عليَّ.. أدخل إلى بلدي متسللة مثل اللصوص وقطّاع الطرق! –تنظر إلى إسماعيل موجهة الخطاب إليه– متسللة يا إسماعيل متسللة! اسمع، بل اسمعوا جميعًا، سأنتظر هنا –وتضرب المائدة بقبضة يدها– وسأنتظر حتى تُفْتَح الحدود وأدخل بلدي عبر باب سبتة مرفوعة الرأس والهامة.. مستقيمة القامة من أسفل فقرة في ظهري إلى أعلى فقرة ترتبط بعنقي.. معتزة بذاتي وتاريخي وبلادي، لأني أحمل فوق كتفي حضارة تمتد إلى أكثر من 1200 سنة.. وتريدني أن أدخله متسللة؟"

التفتت إلى مولاي أحمد ونظرت إليه مليًّا، ثُمَّ خاطبته حازمة:

"ماذا تقول في قولي هذا؟"

أجابها بحماس وبإعجاب لاعتزازها بمغربيتها وصاح مدعمًا أقوالها:

"سننتظر، سننتظر، حتْمًا سننتظر حتى تُفتح الحدود أو تتكفل الدولة المغربية بنقلنا إلى المغرب".

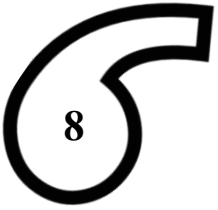

تمر الأيام رتيبة.. كئيبة.. طويلة، مع الحجر ورمضان والغربة.. في الفندق مع العديد من الغرباء والنزلاء وعابري السبيل.. جلست في بهو الفندق تتحسر وهي ترى العواشر غدًا والعيد على الأبواب، ولا أمل في الأفق ولا انفراج..

لم تغيِّر الحاجة الغالية من طباعها ولا من عاداتها، حتى في رمضان.. ظلت تصحو باكرًا وتجلس في البهو الرئيس الفسيح تتأمل بعينين زائغتين بحثًا عن أي شيء للتسلية في هذ الوقت الميت..

كان البهو فارغًا من الزوار، والمسؤول عن الإرشادات يغفو بين الفينة والأخرى.. والمسؤول عن الاستقبالات يغط في نوم عميق، في ذلك الهدوء جلست تسند براحة يدها رأسها المهموم، متكئة بمرفقها على المائدة، وحين ينقبض قلبها وتحس بضيق تخرج من صدرها آهات وزفرات، وبين لحظة وأخرى تغير وضعية جلوسها، وأحيانًا تتحسس بأصابع مرتجفة تجاعيد وجهها الَّتي بدأت تظهر بسبب إهمالها للبشرة

الَّتي حُرِمت من الكريمات في هذا الحجر.. ووجهها المُجهد من كثرة التفكير وقلة النوم بدأ يذبل ويفقد نضارته..

خلو البهو الرئيس من النزلاء والزوار جعل الهدوء والسكينة يسطوان على المكان، وجعل الحاجَّة تشعر بغصة في حلقها وبدموع في عينيها فجأة اتسعت حدقتا عينيها وهي تراقب بدهشة خمسة رجال شرطة من الحرس المدني، يدخلون الفندق ويحدثون جلبة وأصواتهم تتعالى، وهم يبحثون في دفاتر الفندق.... يتمعنون في جوازات السفر، يدونون بعض المعلومات، يتحدثون طويلًا مع المسؤول عن الفندق وينسحبون بنفس الصخب الَّذي دخلوا به.

استنطقت المسؤول عن الفندق كعادتها في الحوار، الذي بشَّرها برحيلهم غدًا.. أخذت هاتفها واتصلت بمولاي أحمد، لم يجب، انتظرت ولم يجب، اتصلت بإسماعيل، كان هاتفه خارج التغطية، فكرت، وفي الأخير بعثت إلى الجميع رسائل تدعوهم إلى النزول فورًا.

بعد بضع دقائق نزلوا مهرولين، وفي اعتقادهم أنها أصيبت بمكروه، طمأنتهم على حالها والنعاس ما زال يرافق بعضهم، وأبلغتهم أنَّ الحرس المدني لسبتة أخذوا أسماءهم، المغرب سيبعث غدًا ثلاث حافلات

لنقلهم، عند سماع الخبر انقلب الخوف اطمئنانًا، والحزن بهجة والصمت هرجا، وطار بلا أجنحة النوم والنعاس والخمول..

احتاروا في أمرهم، أيجلسون أم يقومون، والفرحة تفيض من عيونهم، تمنت الحاجة لو تعطر البهو بكل العطور وتنشر بخور المسك والعنبر في إرجاء الفندق.. وتترك أثرًا يليق بساعة الرحيل.

اتجه مولاي أحمد إلى المرحاض ثم إلى غرفته، غيَّر ملابسه وغاص في حاسوبه بحثًا عن أخبار حول الموضوع، وخرج إسماعيل متحديًا الحجر إلى المركز حيث يقيم المغاربة العالقون للاستطلاع، وبقيت سلوى وسهام مع الحاجة يعبرن عن فرحتهن وإحساسهن وهن يَسْتَعْدِدْنَ للرحيل، قبيل أذان المغرب بنصف ساعة والحاجة الغالية تعد مائدتهم للإفطار بمطعم الفندق بمساعدة سلوى وسهام، والفرحة ملحوظة في عيونهن، وعلى وجوههن، وفي حركاتهن، دخل مولاي أحمد عابسًا ومتجهمًا، جلس في ركن دون أن ينطق بكلمة، نظرن إليه ثم تابعن عملهن، وانشغلن عنه.. بعد أن همست لهما الحاجة:

"–اتركاه وشأنه؛ إنه يعاني من داء السكري ويصر على الصيام، واللحظات قبيل الأذان تكون حرجة وصعبة عند بعض الرجال"

دخل إسماعيل يلهث وينهج بمشيته العسكرية، وقف أمام الحاجة وقدم لها التحية العسكرية، وهو يصيح:

" –ألغيت الرحلة، عفوًا أُجِّلَت الرحلة؛ رحلتنا إلى المغرب"

صرخت في وجهه الحاجة:

" –ما تقولهاش.. (لا تقلها ولو بالمزح، وتفسد علينا فرحتنا)"

التفت إسماعيل إلى مولاي أحمد قائلًا له:

" –ألا تعلم الخبر؟ أين حاسوبك الَّذي ينقل لك كل أخبار الدنيا وعجائبها؟"

اجتمعوا حوله ينتظرون الخبر اليقين، رفع رأسه، ضغط على شفتيه، وفجَّرها في وجوههم:

" –مع الأسف أجِّلَت الرحلة، الحافلات كانت جاهزة مع اللوائح، والاستعداد كان على قدم و ساق، لكن السلطات المحلية أقحمت عدة أسماء لمهاجرين غير نظاميين وأطفال بدون هوية، فتضاعف العدد، والمغرب مُصِرٌّ على نقل المغاربة الذين يحملون جوازات سفر مغربية

والذين خرجوا منه بصفة قانونية، فعادت المفاوضات إلى نقطة الصفر، وتأجل الرحيل إلى يوم الجمعة إن شاء الله"

تناولوا فطورهم في صمت، وكأنَّ على رؤوسهم الطير، ثم انسحب كل إلى غرفته، ولأول مرة بعد عدة أيام من شهر رمضان لم يتسامروا بعد الإفطار وهم يتابعون على شاشة التلفاز أهم البرامج الرمضانية..

مرت ثلاثة أيام وهم يعيشون على أعصابهم، يجتمعون، يتبادلون الأخبار.. يتجادلون ثم يتفرقون، وينسحب كل إلى غرفته، إلى أن أبلغهم المسؤول عن إدارة الفندق بأنهم غدًا سيُنقلون إلى بلدهم والموعد الساعة الثامنة أمام باب المعبر..

بعد الإفطار في مكتب الإدارة أنهوا كل الإجراءات وأدوا كل ما في ذمتهم، تسلموا جوازات سفرهم، وبطاقات تحمل أسماءهم وأرقام جوازاتهم، وكذا أرقماهم في اللوائح... جمعوا أغراضهم، واجتمعوا في بهو الفندق، جافاهم النوم وما عاد أحدهم يرغب فيه، وهم ينتظرون بزوغ أول إشراقات الصباح، حتى السحور اكتفوا بجرعة ماء وحبات من التمر..

في الساعة السابعة تجهزوا بالكمامات وغادروا الفندق، مشوا في طوابير طويلة، الواحد خلف الآخر ومسافة الأمان بينهم.. يجرجرون أجسادهم ويجرون أمتعتهم، ويحملون في صدورهم مشاعر مختلطة بين الحزن والفرح، بعد أزيد من شهرين من الانتظار والترقب، بعضهم مُتعب وبعضهم منكسر، ينتابهم إحساس فظيع بطعم مُر عن أيام قضوها في سجن بلا أسوار، كجنود عائدين من حرب لا انهزموا فيها ولا حققوا انتصارًا!

عند معبر تاراخال اجتمع خلق كثير تحرصهم عناصر من الحرس المدني الإسباني ويراقبهم الصليب الأحمر.. وتحولت الدقائق إلى ساعات، وهم تحت شمس حارقة وآثار الصيام بادية على شفاههم.

ظلت عيونهم تراقب مولاي أحمد وهو يسلم على هذا وذاك ويدخل في حديث مع آخر.. من المتجمهرين العالقين مثلهم، ويبحث في هاتفه.. ويجري اتصالات.. وكلما نادوه تجاهلهم مرة واستمهلهم مرات.

في الساعة العاشرة فُتِح المعبر، ودخلت ثلاث حافلات ترافقها سيارات الأمن الوطني.. فانطلقت الجموع بالتكبير والتهليل، والتحق مولاي أحمد بمجموعته وبشَّرهم بأنهم جميعًا ضمن الفوج الأول، لكن ليسوا في نفس الحافلة، وقد فوجئوا وهو يبلغهم أنه ضمن المتجمهرين

هنا أصدقاء له منتخبون، ومحامون، ورجال أعمال، ظلوا عالقين مثلهم طيلة هذه المدة بمدينة سبتة.

بعد مرور أربعين دقيقة من أجواء الهرج والمرج، صعد أحد المسؤولين إلى سطح إحدى الحافلات موجهًا الخطاب إليهم جميعًا، وشارحًا لهم الظروف وطرق الاختيار، بينما الكل متعجل لركوب الحافلة وينتظر لحظة الانطلاق.

وأول شخص نودي عليه كان هو إسماعيل لأنه الأكبر سنًّا في كل هؤلاء المتجمهرين، وتوالت النداءات، وكل من يسمع اسمه يسلم ورقة المرور ويصعد إلى الحافلة، التحق مولاي أحمد بالحافلة الثانية رفقة الحاجة الغالية، أما الحافلة الثالثة فكانت من نصيب سلوى وسهام.

اجتاحتهم نشوة عارمة، وشوق جارف، وحنين قوي، فرددوا النشيد الوطني في الحافلات الثلاث في وقت واحد، وكأن بينهم اتفاقًا مسبقًا، وانطلقت الحافلات مع التهليل والتكبير وهي تنقلهم، فتغير إحساسهم من إحساس السجين إلى إحساس الحر الطليق.

ظلت الحاجة الغالية تراقب الحافلة الثالثة الَّتي تُقِل سهام وسلوى.. وتلوح بيدها إلى سهام من النافذة؛ فهي المسؤولة عنها وأمانة في عنقها حمَّلها إيَّاها والد سهام.

في طريقهم إلى فنادق الفنيدق، بين هدهدات الحافلات وهزهزات الطريق، استسلم الركاب كلٌّ إلى نفسه وهواجسه وإلى ذكرياته وما ينتظره في قادم الأيام.

استقبلهم المسؤولون والعمال بالتصفيق أمام فندق تزين واجهته الأعلام الوطنية والدولية، وأبلغوهم أنهم سيمكثون هنا بالفنيدق داخل هذا الفندق في الحجر الصحي لمدة أربعة عشر يومًا مع إجراء التحليلات لهم.

وزعوا عليهم أوراقًا مسجل عليها كل التعليمات الَّتي يجب عليهم اتباعها في أثناء الحجر، وسلموا إلى كل واحد منهم مفتاح الغرفة، وبعض المطهرات والكمامات الَّتي يجب استعمالها كلما زارهم أحد.

ظل التواصل بينهم متواصلًا يوميًّا عبر الهاتف والواتس آب والفيسبوك، وحده إسماعيل الَّذي كان يكتفي بالاتصال المباشر فقط لأن هاتفه لا يملك تلك الخاصيات؛ هاتف قديم من الجيل القديم.

اجتمعوا في بهو الفندق مرة أخرى وأُجريت لهم التحليلات، ثم عادوا إلى غرفهم.

طوال فترة الحجر كان مولاي أحمد والحاجة الغالية ينسقان مع إدارة الفندق لتنظيم حفل وداع بعد انتهاء الحجر وأمور أخرى تتعلق بالحفل..

حل العيد، وهم ما زالوا في الحجر الصحي... استيقظت الحاجَّة باكرًا كعادتها، وجدت نفسها وحيدة وسجينة في غرفة زادت من غربتها، لكن هذه الوحدة مختلفة، قاسية ولها طعم العلقم.. انتابها إحساس غريب فجلست تبكي وحدتها، لا تعرف كيف تحتفل بالعيد، أحست به باردًا برود الصقيع وصامتًا صمت المقابر!

عيد غريب بلا مواصفات، بلا دفء، بلا طعم، بلا لون ولا رائحة، بلا احتفالات ولا زيارات، لا تسمع إلَّا كلمات مقتضبة عبر الهاتف والواتس آب.. تبريكات خالية من الروح، من الدفء العائلي، والساعات تمر ثقيلة وبطيئة..

عادت إلى شاشة هاتفها تتابع الأخبار، المصليات بدون مصلين، الأطفال بدون ملابس جديدة.. الشوارع فارغة وأبواب المنازل والمساجد موصدة، والابتسامات غائبة مع غياب الزيارات.

استعانت بتسجيل تكبيرات العيد المسجلة على هاتفها وظلت تستمع والدموع تغزو مقلتيها...

اتصلت بمولاي أحمد وباقي أفراد المجموعة، وبصعوبة كانت تخرج الكلمات وهي تبارك لهم العيد.. ومن خلال إجاباتهم ونبرات أصواتهم عرفت وأحست أنهم ليسوا أحسن منها حالًا، خصوصًا سلوى؛ فقد كانت مخنوقة من شدة اشتياقها إلى ابنتيها ووالدتها، والعزلة والشوق والمرض زادوا عذابها.

ذات صباح كثر الهرج والمرج، واختلط التهليل بالتصفيق، خرج النزلاء يستطلعون الخبر، فاندمجوا بدورهم في التهليل والتكبير بمجرد علمهم أن النتائج كانت سلبية ولا أحد منهم مصاب بفيروس كورونا!

في جناح خاص اجتمعوا حول المائدة احتفالًا برفع الحجر عنهم، كانت المائدة زاخرة بأنواع مختلفة من المأكولات والحلويات والمشروبات،

جُهزت على شرف إسماعيل وتقديرًا لجهوده؛ فقد كان له الفضل في جمعهم كحبَّات عِقد.

قام مولاي أحمد وقدم هديته إلى إسماعيل؛ هاتف حديث جديد، من النوع الممتاز، تقدمت إليه الحاجَّة الغالية قبَّلت رأسه، وقدمت إليه هديتها؛ طقم كامل من الملابس التقليدية، كما وعدته بأنَّ جمعيتها ستهيئ قافلة طبية تضم أطباء مختصين وأجهزة الكشف وتزور قريته، في حين تكلفت سهام بتجهيز هاتفه الجديد وإدخال كل الخاصيات، ونقل الشريحة من الهاتف القديم إلى الهاتف الجديد.

ترك إسماعيل لدموعه العنان فسالت بسخاء، ووقف بقامته المديدة، قائلًا وكله تأثر: نحنح.. بسملة، وصلى على المصطفى، مسح دموعه بكفيه وأبلغهم أن الجنود لا تبكي أبدًا، ولكنها دموع الفرح وتعابير الشكر والامتنان، وتمنى لو كان يملك أوسمة لوضعها على صدورهم وفوق أكتافهم، وصفق له الجميع.

كانت أول مكالمة لإسماعيل من هاتفه الجديد إلى زوجته يبلغها أنه غدًا سيصل إلى البيت، غدًا سيحل بقريته وسيكون بينهم وبين أهله...

قال غدًا وابتسم وهو ينظر إلى الجميع، وبادله الجميع نفس الابتسامة، لا أحد منهم يعلم ما ينتظره في الغد، آهٍ لو يعلمون ماذا ينتظرهم في الغد!

ما ينتظرهم في الغد أكبر من فرحتهم بالعودة، وأكبر من كل ما عاشوه وعايشوه، لأن المغاربة اعتادوا أن يخفوا مصائبهم عن الغائبين إلى أن يعودوا، ويكتمون كوارثهم عن المسافرين إلى أن يرجعوا، ويحجبون أخبارهم المفجعة عن المرضى إلى أن يتأكدوا من شفائهم.. وهذا ما خفي عنهم..

ابنة إسماعيل الصغرى تعرضت للعنف الزوجي عدة مرات، وحين طال الحجر واستمر العنف ونفد الصبر.. قادت أطفالها وعادت بهم إلى بيت والدها، وابنه البِكر ناصر دخل في خلاف مع المقدم على خلفية القفة الَّتي حُرِم منها ولم تُسَلَّم له كغيره من الضعفاء الذين يعيشون وضعية هشَّة.. فاعتدى على المقدم بالضرب والجرح، وهو الآن معتقل على ذمة القضية.

والدة سلوى تعرضت لكسر في إحدى يديها بعد سقوطها أرضًا، ومرض هشاشة العظام زاد الطين بلَّة، وابنتيْ سلوى تعيشان وضعية

نفسية مزرية.. حتى الأقارب الذين كانوا يزوروهم ويمدون لهم يد العون تعذر عليهم ذلك بسبب الحجر الصحي.

مولاي أحمد تنتظره بدوره أشغال ومشاغل وإشاعات، تراكُم الملفات في مكتبه، وتأجيل القضايا في المحكمة جعلت بعض المتقاضين يَنْسَحِبون ويَسْحَبون قضاياهم، واستغل منافسوه من جماهير كرة القدم غيابه الطويل فنشروا إشاعات عنه، أنه سرق صندوق الفريق الَّذي يترأسه وهرب خارج المغرب.

الإيطالية زوجة ابن الحاجة الغالية حامل، ولا أحد من أبنائها يرغب في التطوع لإبلاغها بالخبر، الكل يتهرب من هذه المسؤولية، إضافة إلى الخبر الثاني عن صهرها زوج ابنتها، الذي كشف الحجر الصحي عن عورته فتبيَّن أنه متزوج سرًّا، وبالفاتحة من سكرتيرته الخاصة.

طوال الطريق وسائق الحافلة لا حديث له إلَّا عن المغاربة العالقين بدول العالم.. ومنذ انطلاق الحافلة وهو يحكي ويروي لهم عن العالقين بتركيا، وبفرنسا، وعن عمته العالقة في السعودية بعد أداء العمرة، وختم حكايته بأن الدنيا حظوظ حتى مع العالقين!

وأخيرًا تصل الحاجة الغالية إلى مدينتها سلا، تودع رفاقها، وتغادر الحافلة، تجري بعض المكالمات، ثم استقلت طاكسي من الصنف الصغير، تبلغه العنوان وتواصل مكالماتها.

حين نزلت الحاجة الغالية من الطاكسي تجر حقيبتها خرج جيرانها وسكان الحي عن بكرة أبيهم رغم الحجر الصحي، والتفوا حولها تتقدمهم عضوات من جمعيتها دون أي إجراءات، احتفلوا بعودتها الميمونة، وهللوا وكبَّروا وصلُّوا بصوت واحد على سيدنا محمد وختموها بالزغاريد..

واستمر الحفل بزقاقها وأمام باب بيتها لمدة ساعة تعبيرًا منهم عن حبهم لها. على عتبة باب بيتها وقفت تحييهم تشكرهم وتتمنى أن تجاملهم في أفراحهم، وولجت بيتها الكبير رفقة عضوات الجمعية، بيت العائلة الَّذي تصر على البقاء فيه رغم أن كل أبنائها يعيشون في فيلات بأنحاء متفرقة ما بين الرباط والدار البيضاء..

تطوف ببيتها وتقبل كل ركن فيه وكل زاوية، وكأنها غابت عنه أعوامًا طويلة.

النهاية

آه يا إبْراهيم

نظر إبراهيم إلى زوجته بإمعان وهو محموم ودرجة حرارته عالية.. ثم قال لها مبتسمًا: أنت الشيء الجميل والمتميز في حياتي.

أحست بفرحة عارمة؛ هذه أول مرة يتغزل فيها بعد عشرة طويلة، فلم يسبق له ولو مرة التغزل فيها، أو النطق بكلمة (أحبك)، كانت تلمس ذلك من خلال اهتمامه بها ولهفته عليها، وتشعر به من خلال لمساته العابرة، ونظراته المسائية، وهمساته الليلية وتكتفي بذلك مستسلمة.. اليوم يصرح به، وبحضور والدته.

أما والدته فاعتبرت تصريحاته ضربًا من هلوسة الحمَّى، لم تعره أي اهتمام، إذْ لم يكن يهمها من هذه الأجواء الرومانسية سوى معافاته.. سلامته من كل علة، فقد ترملت وهي في عز شبابها، ورغم ذلك لم تتزوج، وكافحت من أجله وهو ما زال صبيًّا ولم تتهاون، فشل في دراسته فباعت كل ما تملك وأضافت إليه ما ادخرت، ولم تبخل عليه بأي شيء.. خلقت له مشروعًا؛ متجرًا لبيع العطور والإكسسوارات

النسائية، وحين ازدهر متجره واشتهر بين المتاجر باسم (ولد مّي زهرة) زوَّجته على طريقتها، لذلك كان همها أولًا وأخيرًا أن يظل سالمًا معافى.

إبراهيم ولْد مّي زهرة رغم الحمى والسعال والإنهاك كان مُصرًّا على مكوثه في البيت في الظروف الراهنة، ومّي زهرة كانت مُصرَّة على نقله إلى المستشفى للفحص والمعالجة، وظل موقف الزوجة متذبذبًا.. وظلت حائرة بينهما..

اتصلت جارتهم الهاشمية الَّتي اشتهرت باستراق السمع برقم (آلو اليقضة الوبائية) وأبلغتهم بكل الأعراض الَّتي يعاني منها جارها إبراهيم، جاءت سيارة الإسعاف وضجيج صفارتها يستقطب الفضوليين؛ حيث انتشر الخبر في الحي، وانتشرت معه الأقاويل، والجيران بعضهم متحصن بباب بيته يسأل، وبعضهم يطل من النوافذ ويجزم، والآخرون من سطوح المنازل يتربصون، والكل يتساءل عن الخبر اليقين.

وقفت سيارة الإسعاف أمام باب العمارة، نزل منها رجال بملابسهم الواقية –الملابس الخاصة بالجائحة– لا يظهر منهم شيء، هم أشبه برجال الفضاء، منظرهم يثير الاستغراب وأحيانًا الرعب!

أخذوا معهم إبراهيم ولد مّي زهرة واختفوا، وتركوا الأم مقهورة والزوجة مصدومة، وكلتاهما لا تعرف من قام بإبلاغهم، والجيران يسألون من بعيد ويستفسرون بالإشارات من مسافات شاسعة..

ضُحى الغد نزل الخبر على الأم والزوجة كقنبلة انفجرت أمام وجهيهما في المستشفى حين قال لهما الدكتور:

"–النتائج إيجابية والمريض مصاب بفيروس كورونا، حالته متقدمة ووضعيته حرجة.. والمطلوب منكما الآن.."

ثم التفت إلى يمينه ونادى على أحد الممرضين:

"–أحمد، يا أحمد، خذ هاتين السيدتين إلى الحجر الصحي جناح باء قصد التتبع بعد إجراء الفحوصات والتحاليل".

قاطعته الزوجة:

"–ماذا تقول؟ هل جننت؟ لي بنتان صغيرتان تركتهما في البيت مع أختي".

مكث ينظر إليهما مليًّا ثم قال:

"–في هذه الحالة، عليكما أن تعودا إلى بيتكما وتمكثا فيه، ولا تغادراه حتى تأتي سيارة الإسعاف غدًا صباحًا لنقلكما مع كل من يعيش معكما في البيت إلى الحجر الصحي"

وقفتا خلف الزجاج تنظران إلى إبراهيم، برزخ من زجاج يفصل بينهما، بين عالمين، بين حياتين، وبين واقعين، وهو ممدد على السرير في غرفة العزل وكثير من الأجهزة متصلة بصدره وذراعه وأنفه، حين رآهما رسم على وجهه ابتسامة، لكن بدت شاحبة مع دموع خجولة في المآقي.. لوَّح لهما بطرف يده رغم الحمى والألم، والأجهزة، وكله أمل في العودة إليهما، خلال أيام، ومن إشاراته فهمتا أنه يطلب منهما أن يبلغا سلامه وقبلاته إلى ابنتيه فاطمة الزهراء وأختها شيماء.

حين عادتا إلى البيت وقبل ولوجهما إليه لاحظتا وهما وحيدتان، أن لا أحد من الجيران اقترب منهما.. الجميع نَفَرَ واستنفر، كأنهما أُصيبتا بالجُذام، الكل يسأل من بعيد، الكل يسلم من بعيد، ولا أحد يقترب، فقط الهاتف أصبح الوسيلة الوحيدة للتواصل مع عالمهما الخارجي، الجيران عبره تسأل، الأصدقاء من خلاله تستفسر، الأقارب به تستعين لتصل صلة الرحم مواسية ومتضامنة معهما في هذه الأزمة، ولا أحد يفكر في الاقتراب منهما أو زيارتهما، لا أحد.

أحستا بالقهر وانخرطتا في البكاء الصامت وكل ما حولهما انقلب رأسًا على عقب حتى البيت ما عاد هو البيت! بدا لهما بيتًا مهجورًا رغم كل الأثاث، بيتًا مظلمًا رغم كل الأضواء، وصامتًا كقبر بلا صاحب، فقط صراخ فاطمة الزهراء ذات السنة والنصف الَّذي كان يكسر ذلك الصمت ويخرجهما من ذلك الشرود، ويقطع عنهما تلك المناجاة لرب العالمين.. وأحيانًا رنين الهاتف من أحد المستفسرين أو الفضوليين..

قُبيل الفجر بقليل والأم تستعد للصلاة، رن الهاتف وما بين اللهفة والخوف، فتحت الزوجة الخط وأبلغها المتصل أن إبراهيم مات، رمت الهاتف وصرخت بأعلى صوتها مولولة...

"–إبراهيم مات إبراهيم مات.."

نهرتها الأم صائحة:

"–اصمتي ولا تصرخي.. ولا تصدقي المتصل لعلَّه، لعلَّه أحد العابثين يريد أن يلعب بأعصابنا، إبراهيم حي، إنه حي.. ألا تفهمين؟ انتظري.. انتظري.. بل تعقَّلي –ونظرت حولها في كل الاتجاهات ثم مسكت هاتفها– هيا أعيدي الاتصال بالمستشفى من هاتفي، هيا تسلمي، اصمتي واتصلي".

مسحت الزوجة دموعها وتسلمت منها الهاتف محاولة الاتصال، في هذه اللحظة بالذات يُسْمع رنين الجرس، تهرع الأم إلى الباب، وتفتحه بسرعة آملة أن يكون الطارق ابنها إبراهيم، وهنا يأتيهما الخبر اليقين، فإبراهيم انتقل إلى رحمة ربه وهذه سيارة الإسعاف أتت لنقلهم إلى الحجر الصحي؛ حيث ستجرى لهن الفحوصات والتحاليل...

وهي تطل من زجاج نافذة سيارة الإسعاف.. بدأت الأم تولول بصوت خافت أشبه بالأنين:

"آه يا إبراهيم.. تموت ميتة الغرباء.. لا جنازة، لا عزاء، آه يا إبراهيم.. متجرك ومالك وبيتك سيتقاسمه الورثة مع ابنتيك لأنك لم تنجب ولدًا.. آه يا إبراهيم، عندما أموت من سيقيم لي العزاء، أم سأرحل مثلك بلا عزاء... آه يا إبراهيم كنت الجناح الَّذي به أطير والعين الَّتي بها أرى، والسند الَّذي منه استمد هيبتي، اليوم أصبحْتُ طائرًا جريحًا، ضريرًا، لا طيران بعد اليوم، لا هيبة، لا وقار.. آآه يا إبراهيم.. لو تحصَّنت ببيتك لنَجّيْتنا من كل هذا البلاء.. آآآه يا إبراهيم.. سأظل أرثيك، وأناجيك، وأدعو لك حتى ألحق بك.. لأن الحياة لا تحلو إلا بك".

بعدما تمدَّد الحجر.. مرت تسع سنوات على تقاعد الحاج ناصر، ولم يغير من عاداته، ظل يقضي رفقة أصدقائه المتقاعدين نهاره بين الحديقة العمومية والمسجد ولا يدخل إلى البيت إلَّا للأكل والنوم.

عند منتصف شهر مارس أرخت الجائحة بظلالها على البلد والمدينة والشقة الَّتي يقيم بها، وكان الوحيد المستثنى من الورقة الاستثنائية للتنقل بحجة كِبر سنِّه والأمراض المزمنة الَّتي يعاني منه..

ظلت مساحته في البيت تتقلص، تتقلص مع طول مدة الحجر الصحي حتى انحصرت بين السرير والسجادة والحمام.

في بداية الحجر لم يكن يحرك ساكنًا حين يرى زوجته تخرج لشراء أغراض البيت، ويرى ابنته تنطلق إلى عملها في أحد البنوك، وابنه الَّذي يظهر ويختفي مثل الهلال بحكم عمله في الوقاية المدنية.. لكن حين تمدد الحجر وتمطط وتحول من أسابيع إلى شهور نفد صبره، فأصبح يقيم الأرض ولا يقعدها محتجًّا، متذمرًا حين يرى أحدهم يستعد للخروج.

كلما دخلت زوجته إلى البيت حاملة القفة، ورأته مقطبًا حاجبيه، عابسًا، متجهمًا أدركت أن مهمة المراقبة تنتظرها، وعليها أن تراقبه من بعيد طول النهار.. فكثيرًا ما كان يرتدي ملابسه ويتسلل خلسة إلى

الحديقة العمومية دون كمامة ولا قفازات فتلحق به، وترافقه كظله إلى أن يعودا معًا إلى البيت، وإذا تعذر عليها ذلك هاتفت ابنهما عز الدين الَّذي يأتي على الفور ويقنعه بالعودة بعد أن يلاحقانه من ظل شجرة إلى أخرى ومن مقعد أسمنتي إلى آخر، رافضًا الانصياع لهما مردِّدًا على مسامعهما بأنَّه ليس قاصرًا ولا محجورًا عليه، وأنَّ الأعمار بيد الله.

ذات صباح أبلغته زوجته زينب أن صديقه بلعيد مات، بدأ يستعد لحضور جنازة رفيق دربه، وقفتْ له بالمرصاد وحالت بينه وبين الخروج قائلةً له:

"–افتح أذنيك واسمع جيدًا، أولًا هل نسيت أنك لا تملك الورقة الاستثنائية للتنقل؟ ثانيًا أنت أكثر الناس عُرضةً للعدوى بسبب السن والأمراض المزمنة الَّتي تعاني منها، ثالثًا صديقك مات بفيروس كورونا كوفيد 19 كان مصابًا به وقد أخفينا الخبر عنك خوفًا عليك، رابعًا لا أحد يُسمح له بحضور جنازة ضحايا الجائحة، بل الدولة تتكفل بدفن موتى كورونا، خامسًا في ظروفنا الراهنة لا بيوت للعزاء".

أغلق عليه باب الغرفة، من خلف الباب كانت تسمع بكاءه ونحيبه، بعدها فتح الباب وهي تراقبه، توضأ، صلى صلاة الغائب على صديقه بلعيد، جلس يبكي، كانت تتابع حركاته، شرع في ترتيل القرآن الكريم

بصوت خافت وحزين، وانطلق الصوت يعلو ويعلو في تصاعد متواصل، ويتقطع بسبب الزفرات والعبرات، لم تنشغل عنه ولو لحظة لأنها تعلم مكانة بلعيد في قلب الحاج ناصر، فقد كانا صديقين لسنوات طويلة.

الحاج ناصر يعتبر بلعيد أكثر من صديق.. كان يتقاسم معه الأخبار والأسرار.. اشتغلا معًا بالجماعة الحضرية، كانا يجلسان على مكتبين متجاورين يعملان طول النهار جنبًا إلى جنب، وحين تقاعدا، أصبحا يلتقيان كل صباح في الحديقة ويقضيان النهار بطوله مع رفاقهم المتقاعدين.

دخلت إلى الحمام لقضاء حاجتها، فجأة انتبهت أنها لم تعد تسمع صوته ولا نحيبه.. خرجت مسرعة ولم تجد له أثرًا وباب الشقة مُشرع، لبستْ جلبابها في درج العمارة وخرجت تبحث عنه، كامرأة مجنونة تاه عنها طفلها الصغير.. بحثت عنه في كل الأماكن الَّتي يتردد عليها، لا أثر له!

كانت تهرول من مكان إلى مكان بعينين جاحظتين وقلب ملهوف عن زوج عاشت معه إحدى وأربعين سنة، لم تذكر يومًا أنه أهانها أو جرح مشاعرها بتصرف، إحدى وأربعين سنة عاشاها معًا ولم يفترقا.

كانت في السابعة عشر من عمرها حين تقدم لخطبتها، كانت تسمع عنه ولا تعرفه، لكن جسمها يرتعش كلما رأته من شق الباب، وتحس بقلبها يضخ دماء إلى وجهها الَّذي يحمر خجلًا، شاب جميل الوجه والملامح، حليق الذقن والشارب، قمحي اللون، عسلي العينين، معتدل القامة، قوي البنية، بشعر أسود كثيف مُسَرح إلى الخلف.

أمَّا هو فلم يرها إلَّا ليلة الدخلة، فقط كان يسمع عنها، والأذن تعشق قبل العين أحيانًا!

قال لها والدها يوم زواجها: "الليلة سأسلمك إلى رجل سيصونك ويخاف عليك، سيكون زوجًا لك وامتدادًا لي، لن تري منه إلَّا ما يرضي الله ويرضيك".

حين انتقلت إلى بيته، بدأت دنياها معه كأميرة وكان لا يناديها إلا بِـ (لاَلّة زينب)، وخبرتْ حياتها من خلاله وهو يستشيرها في كل كبيرة وصغيرة، واستمتعت بمباهج الحياة على يديه وهو يدخر عندها ماله ووثائقه، وذاقتْ طعم السعادة من طبقه وهو يبثها أسراره ومشاعره، لذلك لا تتصور الحياة بدونه ولا العيش من بعده.

عادت إلى البيت، بحثت عن حافظة نقوده وفتشت في أغراضه لتعرف إن كان يحمل معه البطاقة الوطنية أم لا، فتبين لها أنه لم يحمل معه أي وثيقة تثبت هويته.. اتصلت بابنها كان في مهمة، ثم اتصلت بابنتها كانت مشغولة هي الأخرى، اتصلت بأصدقائه دون جدوى، لم يزر أحدًا منهم.

الحاج ناصر لم يكنْ في وعيه.. يمشي بغير هدى، شارد الفكر، ظل يمشي، ويمشي، حتى وجد نفسه واقفًا أمام عمارة، وهي العمارة الَّتي تقيم فيها أخته الوحيدة السعدية.. رفع رأسه ونظر إلى الطابق الرابع، ولج باب العمارة وصعد الدرج.. طرق الباب عدة طرقات، ثم عاد وطرق عدة طرقات، كان في قمة أزمته ولم يعلم أنه خلق أزمة أخرى داخل الشقة..

حين رأوه عبْر العين السحرية رفض الأبناء أن يفتحوا له، لكن والدهم أصرتْ على فتح الباب لأخيها الوحيد.. لا يمكن أن تتركه يعود خائبًا بعد أن طرق بابها، واشتد الخلاف وتشابكت الأصوات، لقد التزموا بالحجر لمدة شهرين.. ولم يَخْط أحد منهم ولو خطوة واحدة خارج البيت منذ بداية الحجر.. كيف يتركون كل هذا ينهار من زائر لا

يضع كمامة ولا قفازات! كلما كانت الأصوات ترتفع، كان الحاج ناصر يزيد من عدد طرقات الباب.

فُتِحَ البابُ، قدموا له المعقم وطلبوا منه تعقيم يديه ووضع الكمامة على وجهه وترك بَلْغَته قرب باب الشقة، نظر إليهم باستغراب وكل واحد منهم يضع كمامة على وجهه ويحمل قارورة معقم بين يديه، وأبلغته أخته السعدية لولا المعزة ما فُتِحَ له الباب.. منذ الجائحة لا يفتحون بابهم أبدًا للضيوف أو الزوار.

كانوا يتكلمون، يرى شفاههم تتحرك لكن الأصوات لا تصل إلى أذنيه، لا يسمع شيئًا، استعصى عليه استيعاب المشهد فعاد أدراجه ونزل الدرج...

ضاق صدره وأفقه والحياة بما رحبت، فانزوى في ركن بباب المسجد الَّذي كان يصلي فيه، جلس وثنى رجليه، جمع ركبتيه إلى صدره وضمهما بذراعيه.. كل الذكريات والصور رآها تتساقط من ذاكرته كأوراق الخريف من شدة الصدمة والتوتر والحزن، ظل حائرًا في أمر دنياه يتساءل:

"–لقد كنا نتسابق إلى الموت لإنقاذ بعضنا، واليوم نتخلى عن بعضنا لإنقاذ أنفسنا، وكأن شعارنا (أنا وما بعدي الطوفان) آه يا كورونا ما أقسى قلبك! حاصرتِ المشاعر وقتلتِ الأحاسيس، آه ما أقواك يا كورونا! تمنعين الزيارات.. وتُغلقين أبواب المساجد، آه يا كورونا ما أخطرك! لا جنازات في وجودك، لا مآتم ولا أعراس".

ظل على وضعه عدة ساعات، مُكتفيًا بما يجول في خاطره دون حركة، أغمض عينيه ووضع رأسه بين ركبتيه، ثم دخل في سُبات كَمَنْ فقد وعيه..

صحا على صوت الأذان، رفع رأسه، نظر حوله مستغربًا.. كان الظلام يخيم على المكان ولا أثر للراحلين!

مشى بخطوات متثاقلة يجر جسدًا مُنهكًا أصبح وحيدًا في الشارع، وكلما رأى سيارة للأمن الوطني أو القوات المساعدة اختبأ خلف شجرة أو سيارة مركونة متسللًا وجنبات المنازل حتى وصل إلى بيته فتنفس الصُّعَداء...

طرق الباب، باب شقته، حين فتحوا له بادرهم صارخًا:

"–أختي السعدية ماتت، ماتت أختي الوحيدة "

ضربت زينب فخديها بكفَيْ يدَيْها متسائلة عن الوقت والسبب، أشار بيده إلى قلبه قائلًا: "ماتت هنا ".

أغلقت الباب خلفه، ساعدته على خلع جلبابه وعمامته، وهي تحكي له وهو في حالة شرود:

"– أتدري كم أرعبتنا ؟ أتدري كم أفزعتنا؟ لقد اتصلنا بكل المستشفيات وبأقسام الشرطة وبأصدقائك (صامتا لا يجيب) سأجهز طعامًا للعشاء، ونحن نأكل، ستحكي لنا ما جرى لك مع أختك، كما سأجهز لك الماء للوضوء حتى تدرك ما فاتك من صلاة ".

ثلاثة أيام مضت بلياليها وهو شارد، ساكن، قليل الكلام، فاقد شهية الطعام ..

وفي الليلة الرابعة قبيل أذان الفجر بقليل صحا من نومه، غادر فراشه متجهًا إلى الحمام، قَصْد الوضوء.. فقد توازنه.. فهوى على الأرض مُحدِثًا ضجَّة، وحرارته مرتفعة يهذي بكلام متقطع لصعوبة التنفس.. والعرق يتصبب من جبينه وعروق عنقه برزت منتفخة.. وعظام كل أعضائه تؤلمه، وزوجته بجانبه تولول... أدرك عزالدين أن والده أُصيب بالعدوى فاتصل بسيارة الإسعاف مبلغًا عن حالة والده،

أمسكت زينب رأس زوجها وأسندته إلى صدرها وهي تقرأ المعوذتين، وطلبت من ولديها أن يبقيا بعيديْن حتى لا يُصابا بالعدوى.

بقي عزالدين وأخته يتابعان الوضع من بعيد، وفي حلقيْهِما غصة وفي عينيهما لوم شديد لوالدهما الَّذي يعاند عن جهل ولا يمتثل للنصائح، أما هو فرأى فزعًا في عينيهما وأشياء جميلة ماتت بداخلهما، وحدها زوجته الَّتي ظلت بجانبه تسعفه وتساعده.

في سيارة الإسعاف كانت بجانبه باعتبارها مخالطة للمصاب، تمسك بيده تنظر إليه وهو مُمَدد منهك القوى.. فتح عينيه وابتسم لها، هي الابتسامة نفسها الَّتي رسمها على وجهه وهو يلمس يدها لأول مرة، يومها كانت يده دافئة شوقًا ويدها باردة خوفًا من رهبة اللقاء.. أمَّا اليوم فيده دافئة من حرارة الفيروس ويدها باردة خوفًا من لحظة الفراق.. مع اختلاف بسيط لم تكن يدي هذه المرة تزينها نقوش حناء العرس.

صديقان ثالثهما كورونا

تعيَّن الأستاذان حسن ورشيد بمدينة طانطان بعد تخرجهما من مركز تكوين المعلمين، الشاب حسن في الثالثة والعشرين من عمره، والشاب رشيد أصغر منه بثلاث سنوات، ومنذ تعيينهما سنة 1983 وهما صديقان لا يفترقان.

أول لقاء بينهما كان بمدرسة يوسف بن تاشفين؛ حيث ظلا يشتغلان في نفس المدرسة ويقيمان في نفس البيت.. فتكونت بينهما صداقة أخوية، وحين تعِب الأستاذ حسن من حياة العزوبية فكَّر في الزواج، فصاهر صديقه وتزوَّج أخته، فتطورت علاقتهما إلى علاقة أسرية.

بعد تِسع سنين سينتقلان معًا إلى مدينة الدار البيضاء.. وسيشتغلان معا في نفس المؤسسة ويظلان صديقين صادقين في علاقتهما لا يفترقان.

أول أيام الدخول المدرسي لسنة 2021-2020 خرج الأستاذ حسن من بيته باكرًا، واضعًا الكمامة على وجهه، وقلم حبر أزرق في

جيبه والمعقم بين يديه، متجهًا إلى المدرسة لتوقيع محضر الدخول، التقى بصهره الأستاذ رشيد عند منتهى الشارع، وتابعا سيرهما صامتَيْنِ في اتجاه المدرسة، لأن الأستاذ حسن وصل إلى سن التقاعد، لكن نظام التقاعد الجديد يلزمه بالبقاء في العمل سنة أخرى إضافية مع التمديد..

بباب إدارة المؤسسة استقبلهما المدير مُعَرفًا بنفسه، وهو شاب خريج مسلك الإدارة التربوية لهذه السنة.. رافقهما إلى قاعة الاجتماعات وحديث التعارف بينهما مُسْترسل في انتظار حضور باقي الزملاء..

الأستاذ حسن منذ انطلاق الحجر الصحي لم يخرج من بيته، ولم يغادره.. لأنه يعاني من أمراض مزمنة، ومهدد أكثر من غيره بهذا الوباء.. ولولا الدخول المدرسي ما غادر بيته.

لاحظ الزملاء الارتباك والتذمر على الأستاذ سي حسن في أثناء الاجتماع وحين تناول الكلمة كآخر متدخل خرج عن الموضوع وانطلق في الحديث عن التعليم بين الأمس واليوم، بين العصر الذهبي الَّذي عاشه، والعصر الإلكتروني الَّذي نعيشه، ومِنْ بَيْنِ ما قاله لهم:

"في عصرنا نحن شيوخ التربية كان الأستاذ بمنزلة الأب، والأدوات بسيطة والمقاعد من خشب، وقلوب الأساتذة بيضاء وعقول التلاميذ من ذهب، والمدرسة هي الأم منها المنبع والمصب.. اليوم السبورة تفاعلية والعقل هائم، الأستاذ مُتهم والتلميذ ناقم، المهام كثيرة والضمير نائم"

بدأت الكمامة تخنقه، ولما أحسَّ بالاختناق أنزلها إلى أسفل ذقنه وتابع الحديث وهو يتأسف كثيرًا وبحرقة، لأنه كان من المفروض أن يكون اليوم متقاعدًا في بيته مستريحًا، لولا نظام التقاعد الجديد الَّذي حرمه ذلك، فهو اليوم معتقل داخل وظيفته بعد تجاوزه الستين، كان يتكلم بصعوبة وبأنفاس متقطعة ختم كلامه:

"أتنفس بصعوبة بلا كمامة وبصعوبة أكبر بالكمامة، لأني مريض أعاني من مرض السكري، وضغط الدم، ومشاكل في القلب.. قولوا لي أما آن لهذا الفارس أن يستريح بتقاعد مريح؟ وها قد تجاوزْتُ الستين بشهور ولم أعد قادرًا على تهذيب النفوس، وتقديم الدروس، حضوريًا أو عن بُعْد بأجهزة لا أتقن استعمالها.. لم أعد سالمًا معافى وبصحة جيدة كما كنت، لم أعد سالمًا معافى وبصحة جيدة كما كنت..."

ظل يرددها بصوت منخفض إلى أن سكت، فخيم الصمت على الجميع، وعلامات التأثر بادية على الوجوه.. قام من مكانه متثاقلًا واتجه إلى المحاضر وقَّع على المحضر، ولحق به الأستاذ رشيد وقَّع هو الآخر على المحضر، وخرجا معًا بعد أن ودَّعا الحاضرين على أمل اللقاء في الغد.

ظل الأساتذة يقدمون الدروس عن بُعْد كل يوم داخل المؤسسة، تقدم الأستاذ سي حسن بمراسلة لتقديم الدروس عن بعد من بيته لظروفه الصحية حتى يضمن سلامته، وفي انتظار الجواب وأصل عمله.

مساء نهاية الأسبوع أحس الأستاذ حسن بحرارته ترتفع تدريجيًّا مع التهاب في الحلق.. ثم شعر بالوهن وسعال حاد ليلًا.. وواصل صموده مستغرقًا في النوم..

حين قدمت له زوجته حساء "البلبولة" مع زيت الزيتون في الصباح، أدرك أنه فَقَدَ حاستَيْ الذوق والشم، لما بلَّغها ذلك التقى بصره ببصرها، فدار بين العيون حديث خفي صامت، كله خوف وقلق وتوتر، مدَّتْهُ بدواء خافض للحرارة.. ثم قامت تُغْلي له بعض الأعشاب لشربها في انتظار تحسن حالته.

عند أذان الظهر قام للوضوء قصد الصلاة فأحس بألم في الصدر، كابَر ونشر السجادة للصلاة.. بعد أذان الإقامة بدأ يجد صعوبة في التنفس وحتى في النطق، أشار على زوجته أن تتصل بأخيها الأستاذ رشيد،

نقلته سيارة الإسعاف بعد تأخر استغرق ثلاث ساعات، في المستشفى تأكد الأطباء من إصابته بفيروس كورونا حتى قبل التحاليل لأن أعراض الإصابة كانت واضحة.. وأُسعِف بجهاز الأوكسجين، لم يكن مستسلمًا بقدر ما كان متذمرًا من وضعه الوظيفي.. انتشر الخبر مع خروج التحاليل المخبرية الَّتي تؤكد إصابتهما هو وصديقه في كافة وسائل التواصل، واعتبرت وزارة الصحة تلك المدرسة منطقة موبوءة، حين تبين لها بعد نتائج التحاليل الَّتي أجرتها في المدرسة أن المدير وثلاثة أساتذة آخرين مصابون، وكل واحد منهم جرَّ خلفه عددًا من المخالطين.

التحق المصابون بالأستاذ حسن وصهره في المستشفى، لكن وضْع سي حسن كان يختلف عن وضعهم.. لأنه يمكث في غرفة معزولة وموصول بأجهزة الأوكسجين الاصطناعي الاختراقي.

خرج المصابون جميعا بعد ثلاثة أيام لمتابعة العلاج في منازلهم، إلا الأستاذ حسن، فحالته لا تسمح بذلك إطلاقًا، لكن الأستاذ رشيد أصرَّ على البقاء في المستشفى حتى يخرج مع رفيق دربه، طالما دخلا معًا، وظل بين الفينة والأخرى يذهب إلى غرفة الإنعاش ويسرق النظر إلى سي حسن خلف الزجاج، ويتابع أخباره!

ذات ليلة جاء الطبيب المُعالج إلى جناح المصابين مُعْلنًا لرشيد عن وفاة سي حسن، فَقَدَ رشيد رُشْدَه عند سماع الخبر، وبقي مصدومًا والعرق يتصبب من جبينه، وامتقع لوْنُ وجهِهِ واصفر شحوبًا من رهبة الموقف.. ارتجفت شفتاه وابيضَّتا من شدة التأثر.. وانعقد لسانه عن الكلام؛ فسي حسن لم يكن صديقًا وصهرًا فقط، بل كان بالنسبة إليه الأخ الأكبر الَّذي يحل محل الأب.

لأول مرة سيفترقان بعد سنين طويلة من الصداقة والزمالة والمصاهرة.

مات الأستاذ حسن وفي قلبِهِ غَصَّة لعدم صون كرامته وهضم حقوقه.. لأنه لم يستفدْ من تقاعده الَّذي انتظره طويلًا، وقد حُقَّ له، ولم يستمتعْ بمستحقات ترقيته الَّتي حلم بها كثيرًا، وظلت محجوزة في وزارة المالية بسبب كورونا.. ومعها تأجلت كل آماله وأحلامه وتطلعاته الَّتي بناها، جاء الموت وطواها بلا رحمة وأصبحت في خبر كان.

كورونا لا تقتل فقط

أيقظتْه زوجتُه هَمْسًا وهي مرعوبة، فاستيقظ زوجُها من نومه مفزوعًا وهو يرى في عينيها خوفًا وقلقًا، ويسمع صوتًا جَهوريًا غير واضحة معانيه، والضحك الممزوج بالبكاء يملأ الشقة ويتناثر في الهواء...

بصوت خافت ومرتبك نطقت الزوجة مستعينة بحركات يَدَيْها تشرح له الوضع، وبصعوبة استطاع أن يفهم منها أن ابنهما صلاح الدين هو الَّذي يُصْدر هذه الأصوات منذ منتصف الليل.. وهو يهذي بكلام غير واضح، يبكي ويضحك في آن واحد.. ساد صمت في الشقة، ثم انطلق في ترديد أغنيته المفضلة: (أوه.. أوه.. أوه.. فبلادي ظلموني.. أوه.. أوه.. أوه.. لمن نشكي حالي)، وظل صوته يعلو، ويعلو حتى أصبح صراخًا، وتحول الصراخ إلى بكاء!

حاول الزهراوي أن يقوم لمعاينة ابنه، لكن ما قالته له زوجته جعلتْ قواه تخور، فجلس مقطب الحاجبين يهرش فروة رأسه، ويفكر في الصورة الَّتي وصفتها له زوجته، وكيف أصابتْها الصدمة لما فتحتْ عليه باب

الغرفة، وبدا لها عاريًا بدون ملابس، يفحص جسده وأعضاءه التناسلية ويهذي بكلام مبهم، فولَّت هاربة وتركت باب الغرفة مفتوحًا...

جمعتْ شعرها إلى الخلف وجلسَتْ على السرير بجانب زوجها تحكي له باقي التفاصيل، وعن الاضطرابات الَّتي بدأت تظهر على صلاح الدين منذ انطلاق فرض حالة الطوارئ والحجر الصحي بأسبوع تقريبًا؛ إذْ إن حالته كانت تسوء يومًا بعد يوم، ثم أصبح يعاني من التبول اللاإرادي، وكانت كل يوم تغير فراشه حتى لا يتأزم أكثر.. بقي زوجها يحملق فيها وهي تحكي، يكاد لا يصدق ما يسمع، قام من مقامه ومضى متسللًا تحت جنح الظلام، متجهًا إلى غرفة ابنه الَّتي كان بابها مواربًا، وبصيص من النور يتسلل عبرها.

وقف مشدوهًا وهو يرى ابنه صلاح الدين يقضم أظافره بأسنانه حتى كاد يدمي أنامله.. ويحرك (بؤبؤ) عينيْه داخل مُقلتيْه في كل الاتجاهات كأنه يبحث عن هارب أو يطارد شبحًا من سراب!

صلاح الدين فتى مدلل، وحيد والديه، وأنيس جدته قبل وفاتها، احتفل في شهر فبراير الماضي بعيد ميلاده الخامس عشر، مولع بكرة القدم، من محبي الفريق الأخضر، واللون الأخضر وخضرة الطبيعة.. ومن مستعملي الحبوب الحمراء "القرقوبي" مع استعمال لفافات

الحشيش بين الفينة والأخرى، فاشل في دراسته.. يميل إلى العنف اللفظي ويستهويه الشغب.. ويحب المغامرات.. طُرِد من الإعدادية في السنة الماضية لولا الرسالة الاستعطافية الَّتي ساهمت في عودته إلى مقاعد الدراسة.

فجأة نزل الحجر الصحي منتصف شهر مارس كالصاعقة على الجميع، فَحُرم صلاح الدين من كل شيء.. من اللعب في الملاعب وهو لاعب ماهر، من الجلوس في المدرجات مع جمهور فريقه، من الخروج إلى المنتزهات، من مجالسة رفاقه في المقهى أو بزقاق حيهم.

مكوث صلاح الدين ثلاثة أشهر حَجْرًا بين أربعة جدران غرفته قَسْرًا.. كأنه في السجن قَهْرًا جعله وَحْشًا في سلوكه، لأن خروجه من الشقة محظور عليه، إلا بورقة التنقل الاستثنائية الَّتي لا يملكها، حتى صبيب الإنترنيت؛ وسيلته الوحيدة في التسلية كان ضعيفًا جدًّا جدًّا.. وقد كان انقطاع الإنترنيت أحيانًا لدقائق أو ثوان يستفزه كثيرًا ويُخرجه عن طوره، فيصرخ بأعلى صوته غاضبًا، ويقدف بيدَيْه ورجلَيْهِ كل ما يعترض طريقه.. وتلك الانقطاعات كانت من مبرراته بعدم اهتمامه والتزامه بمتابعة دروس التعليم عن بُعد.

ومع كل تمديد للحجر كانت معاناته تزداد وتتضاعف دون أن يشعر بذلك أحد من أفراد أسرته لأنَّ حرمانه من ممارسة هواياته ومنعه من الاستمتاع بفسحاته جعل مساحة الفراغ تتسع حوله، وتُسبب له ضغطًا نفسيًّا كبيرًا.

هذا الضغط النفسي جعل الوحش الَّذي بداخله يكبر بسرعة فائقة، ويُخِل بتوازناته السلوكية والعقلية..

عانى صلاح الدين كثيرًا مع طول الحجر؛ حيث فقد الحيوية ونفد منه الصبر.. وتخلت عنه قوة التحمل.. حتى الابتسامة غادرت محيَّاه.. لقد فقد كل شيء فيه جميل، بما فيهم عقله.. وظروف عائلته المالية لا تسمح لهم بعرضه على طبيب نفساني.. لأن الجائحة ابتلعت المال والعمل، فالحمَّام الشعبي التقليدي الَّذي لديهم ومصدر رزقهم الوحيد مغلق منذ بداية الحجر الصحي..

لقد مرت أسرته من جميع مراحل التدبير حتى وصلت إلى مرحلة التقشف مرغمة، فقلصت عدد الوجبات واستغنت نهائيًا عن الكماليات من فواكه ومشروبات.. ودبرت جميع المشاكل إلا مشكلة صلاح الدين لم تكن في الحسبان.

ظل والدا صلاح الدين يتشاوران همسًا في أمر ابنهما ولم يشعرا إلا والنوم قد غلبهما، حين استيقظا متأخريْن من النوم، لم يعثرا له على أثر، وقد نسيت الأم أن تغلق باب الشقة بالمفتاح، بحثت عنه الأسرة في كل الأماكن وفي مخافر الشرطة وفي المستشفيات ولا أثر..

رحل ولم يترك له أثرًا سوى خربشات على جدران غرفته.. لا تكاد تميز معانيها، أو ما يريد قوله من خلالها..

أدرك والداه معًا بعد فوات الأوان أنَّ كورونا لا تقتل فقط، بل أحيانًا تتسبب في الاختفاء، وتبتلع عقول الأطفال في الخفاء.

العياشي والعيش الكريم

العياشي لم يعش يومًا في بلده كما ينبغي له أن يعيش.. ولم يعرف في حياته معنى العيش الكريم.

كان وحيد والدته بالتَبَنِّي الَّتي كان يعتقد أنها تَبَنَّتْهُ لوجه الله، إلى أن اكتشف الحقيقة.. والحقيقة المُرَّة ظهرتْ حين اعترفتْ له وهي تحتضر أنها هي أمه الَّتي أنجبته، لكن من خلال علاقة غير شرعية؛ أي أنجبته خارج إطار الزواج.. لأنها كانت عانسًا ولم يسبق لها الزواج، وخوفًا من الجيران والأقارب والناس ادَّعَتْ أنها وجدته قرب باب المسجد وتبنَّتْه لوجه الله.. وسمته العياشي لأن كل محاولاتها لإسقاطه وإجهاضه فشلت، قاوم ونجا، بل انتصر وعاش!

عاش على الهامش مع امرأة عانس.. يقتاتان من فُتات موائد الآخرين.. يلبس ما استغنى عنه أترابه من الملابس، ويقتني الباقي من " البال".

التحق بالمدرسة بعقد (ازدياد) في خانة الأب محل الاسم خط فقط! سبَّب له ذلك إحراجًا كبيرًا، فغادر مقاعد الدراسة في سن مبكرة، وانتقل إلى ورشات الحرفيين، وسِنه لم يتجاوز العاشرة من عمره.. وظل يتنقل من مهنة إلى أخرى كلما تعرض للعنف اللفظي أو الجسدي، كما أدمن على المخدرات مع المشردين ورفاق السوء.. فلم يكتسب أي صنعة تستره وتحميه من تقلبات الزمن.

حين بلغ السابعة والأربعين من عمره ورغب في الزواج، خرج يبحث بين بنات الليل وفتيات الملاهي عن عروس، لعل إحداهن ترغب بالاستقرار معه وترضى به زوجًا، فقد كانت له عدة تجارب فاشلة مع أسر محافظة، تقدم لخطبة بناتها ولم تقبل به صهرًا، وعدة محاولات صادمة مع فتيات فقيرات جدًّا لم يقبلن به زوجًا، لأنه لا يملك عملًا قارًا، وأصله غير معروف بين الناس.. ولا عائلة له.. ولا مستقبل لديه.. ومدمن على الممنوعات.. ويتلعثم في الكلام في أثناء الحديث والتواصل.. لذلك يعجز غالبا في التعبير عَمَّا بداخله.

لما اجتاحت الجائحة البلد لم يستفد كغيره من صندوق كورونا مع أصحاب بطاقة الرميد.. كما لم يستفد مع أصحاب الطبقات الهشة، بكى واشتكى للمقدم بكل تلعثماته، صرخ واحتج أمام قائد الملحقة

متحديًا التأتأة الَّتي تمنعه من التعبير.. اعتصم أمام القيادة بلا طائل تحت شمس حارقة طول النهار، ومارس الاحتجاج بلا جدوى.. والقى الشعارات دون فائدة، لم يحظ لا بالاحترام ولا بأي عناية، بل لم يحرك فيهم ساكنًا، لأنه مجرد عامل في حمام تقليدي "كسَّال" وأحيانًا حمَّال في "المُوقَف" لا وساطة له، ولا ظهرًا يستند عليه، ولا مظلة يحتمي تحتها.

لقد أخذوا المكاسب والغنائم وتركوا له الوطن، الذي لا يملك فيه سوى البطاقة الوطنية.. فلم يجد العياشي في وطنه حُبًّا ولا حُضنًا ولا كرامة.. فانزوى في ركن بلا منصب ولا مكسب يتفرج على الفائزين، يرى النعمة حوله تُوزع وهو محروم من معونة يقتات منها، عندئذٍ ترك الوطن وانصرف، وتحرر من قيود الحياة.

لم يكن رحيله عقابًا لذاته بل احتجاجًا على الآخر.. الذي أخذ كل شيء ولم يترك له شيئًا (يتمعَّش) به.. وكل ما كان يطمح له في حياته هو العيش الكريم.

بعد أيام معدودة انتشرتْ رائحة كريهة منبعثة من مقر سكناه الَّذي يوجد في بناية قديمة بزقاق مغلق.. لما تدخلت السلطات المحلية وجدت جثة في طور التحلل، لم تعرف السلطات إنْ كان العياشي مات منتحرًا أو مقتولًا أو مسمومًا أو مات جوعًا وقهرًا! في غياب التشريح الَّذي

يحدد ذلك، ولم يكن لهم متسعًا من الوقت في ظل الجائحة للبحث في قضية رجل عاش على الهامش طول حياته.

في محضر المعاينة بعد بحث وتمحيص في بيته الَّذي لم يجدوا فيه كسرة خبز واحدة توحد الله.. بالإضافة إلى شهادة الشهود من جيرانه الذين اختلفوا بين احتمال إصابته بهذا الوباء، لأنهم كانوا يسمعون أنينه من شدة الألم وبين حسرته على بيته المهدد بالطرد منه لعجزه عن دفع مبلغ الإيجار لشهور عديدة.. أما الكمامة لم يروه يومًا يستعملها وربما لا يملك ثمنها.. وجيرانه ليسوا أحسن حالًا منه، اجتمعوا معه في زقاق مغلق وجمعهم الفقر والحاجة.. وعاشوا جميعًا على عتبة باب الله، ينتظرون الفرج الَّذي طال انتظاره..

وجاء في محضر السُّلطات ما يلي:

أصيب المسمى قيد حياته العياشي بفيروس كورونا، خاف وارتعب، وهو في بيته وحيد بلا ونيس.. مريض بلا دواء، مفلس بلا مال، وجائع بلا طعام، فقطع كل الروابط الَّتي تربطه بالناس والوطن والحياة.. إلى أن عُثِرَ على جثته متعفنة وقد رحل عنها.

فأغلق المحضر على أنه من ضحايا فيروس كورونا!

وتكلف المسؤولون عن ضحايا كوفيد 19بنقله ودفنه.. وطوى النسيان قصة العياشي الذي لم يترك خلفه سوى بطاقته الوطنية، هي كل ما كان يملك في دنياه.

صفاء بين الوباء والبلاء

كانت الاستعدادات جارية على قدم وساق لإقامة العُرس في شهر غشت2019 لولا وفاة والد سفيان بسكتة قلبية في وقت حرج وفجأة آواخر شهر مارس 2019 العرس إلى أواخر شهر مارس..2020

وبعد مرور سنة قام العريس سفيان وعروسته صفاء بكل إجراءات الزواج من جمع الوثائق وكتابة العقد في بداية شهر مارس.. واتفقت صفاء مع أحد ممولي الأعراس والنكافة والطباخين وفرقة الأوركسترا، وسلمت لكل منهم جزءًا من المبلغ المتفق عليه مع تحديد الموعد والمكان، كما وزعت دعوات حفل عرسها على المدعوين، تدعوهم فيها إلى حضور حفل زفافها يوم السبت 28 مارس ليلًا بقاعة الأفراح، وأصبحت كل صباح تخرج رفقة والدتها لاقتناء باقي تجهيزات العرس من المحلات التجارية، وكان فيروس كورونا في هذه الفترة ينتقل عبر الدول متسللًا من الصين إلى إيطاليا فإسبانيا وصولًا إلى المغرب...

قبل موعد العرس بأسبوع لسوء حظ صفاء فُرِضَ الحجر الصحي الكامل بالمغرب لمدة شهر، فتعذر عليها القيام بالعرس، وأجلته لمدة شهر، وكلما تمدد الحجر الصحي يتأجل العرس.. وظل التمديد يتكرر والعرس يتأجل حتى مرت ستة أشهر، وحل شهر غشت شهر الأعراس والحفلات،

أحست أن هذا الفيروس يكنُّ لها عداء شخصيًّا فقررت أن تتحداه وتقيم العرس والعرس بالنسبة إليها كان حلمًا انتظرته طويلًا، خصوصًا الجلوس في "العمّارية" كأميرة محمولة فوق أكتاف الرجال، وللتخلص ثانية من هذا الإحساس الَّذي ظل يراودها بأن مدة صلاحيتها في بيت العائلة دون زوج تكاد تنتهي، وإذا انتهت سترمى في سلة المهملات وستعيش على الهامش، لم تكن تشكل عبئًا على إخوتها، لكن كانت ترى ذلك في عيون زوجاتهم كلما نظرت إلى عيونهن.. لذلك قاومت وقاومت حتى التقت بسفيان.

سفيان خطيبها كان أصغر منها سنًّا بعدة سنوات وأقل منها رتبة في إطار الوظيفة بعدة درجات.. ولا يملك من الشهادات الجامعية الَّتي حصلت عليها إلا شهادة واحدة فقط.. وبجانب الشقة والسيارة تملك صفاء ميراثًا محترمًا، وليس في جَعبة سفيان من متاع الدنيا إلا وظيفته

وشبابه وأحلامه، لكن ما يقلقها في زواجها منه هو ضعفه وارتماؤه في حضن أمه، صفاء امرأة متوسطة الجمال ومعتدلة القامة، نحيفة جدًّا لكن أنيقة، يتيمة الأب لكن ميسورة، تجمع بين المرح والطيبوبة وقوة الشخصية.. تعاني من تساقط الشعر من شدة عصبيتها المفرطة الَّتي دمرت أغلب علاقاتها، ربما لأنَّ نصيبها من الحظ في دنياها قليل وقليل جدًّا، وحتى هذا القليل لا يريد أن يستقيم معها، وأن يشد من عضدها في مسألة الزواج.. حتى عيد ميلادها من سوء طالع حظها لا تحتفل به إلا مرة كل ثلاث سنوات، لأنها من مواليد 29 فبراير.

لما التقت سفيان رأت فيه ربيع عمرها الَّذي راح، وزهرة شبابها الَّتي ذبلت، وكانت ترى في عينيه الخضراوين بهجة دنياها، بعد عدة تجارب فاشلة، فقد تقدم لخطبتها أكثر من شاب، وفي كل مرة تفسخ الخطبة بعد مدة لأسباب متعددة يطول شرحها؛ إذْ لم يحالفها العشق في حياتها ككل نساء العالم، ولم ينتظرها القطار في المحطة ككل الفتيات، ولم يصادفها الحب في الطريق ككل المراهقات، ولا ابتسم لها الحظ ككل البنات، حتى آمنت أن هناك سحرًا يطاردها.. أو عينًا تترصدها، وتعرقل لها مسارها في تكوين أسرة.. وهي ترى الزمن يجري ويطوي المراحل بلا رحمة.

وحين قارب شهر غشت منتهاه، أقامت العرس بشقتها، بعد أن وجهت الدعوة إلى أفراد أسرتها وأسرة سفيان والجيران والأصدقاء المقربين، وتمت كل الأمور بسلام، وقُبَيْل "الدخلة "بدقائق اقتحمت السلطات الأمنية الشقة واقتادت الزوجين إلى مركز الشرطة، وبعد كتابة المحضر تقرر عرضهما على وكيل الملك في الغد، بتهمة الخرق السافر لحالة الطوارئ الصحية المفروضة بكافة أرجاء المغرب وتعريض المدعويين للخطر! وبذلك كانت صفاء أول عروس بثياب العرس تُرَحَّل مُعْتقلة إلى مركز الأمن.

فكَّرتْ ودبَّرتْ ثم فكَّرتْ، وفي الأخير قرَّرتْ الاتصال بالمحامي راجية منه الحضور، حضر المحامي رفقة صديقة لها.. حين انفردت به طلبت منه أن يبحث لها في القانون كيف تُتِم مراسيم زواجها، أن يبحث لها عن فصول.. عن بنود.. عن ثغرات في القانون تساعدها، وتسمح لها بإقامة "الدخلة " في أي فندق، في أي خانة، أو حتى في مركز الشرطة، المهم أن تتم كل مراسيم الزواج خوفًا من جائحة فيروس كورونا أن تنتصر عليها وتدمر لها مستقبلها وزواجها!

احتار المحامي في أمرها وتساءل مع نفسه إن كانت بكامل قواها العقلية، لغرابة طلبها، ثم ابتسم دون إجابة، فترجته أن يفكر لها في حل،

لأنها إذا أتمت المراسيم، ضمنت الزوج والبيت والمستقبل، وانتصرت في كل معاركها الَّتي تخوضها ضد حظها التعس وحماتها والجائحة والشامتين من الحسَّاد.

وعدها خيرًا وخرج ليستشير بعض المحامين والسلطات المحلية وكل من له علاقة بالموضوع، فهي لا تخاف من العقوبة الحبسية ولا الغرامة المالية، ولكن تخاف ضياع الليلة ويضيع معها كل شيء، فالعمر لن يتوقف حتى تتحقق الأحلام، وقد تجاوزت السابعة والثلاثين من عمرها، وفترة الإنجاب لن تتمدد طويلًا لسواد عيونها.. وهي على مشارف نهايتها، وكلام الناس لا يرحم العانس ولا العاقر ولا تعيسة الحظ!

أما حماتها فكان كل همها، كيف يعود ابنها سفيان إلى حضنها بأمن وسلام، ومستعدة كامل الاستعداد أن تضغط على ابنها كي يتنازل عن الجَمَل بما حَمَل شريطة نجاته من العقوبة الحبسية.. حتى لو تدمر هذا القفص الذهبي وراح كلٌّ إلى حال سبيله.. فهي منذ البداية وحتى قبل وفاة زوجها بسكتة قلبية لم تكن متحمسة لهذا الزواج، ومن صفاء بالتحديد، مما زاد الطين بلَّة.

غاب الصَّفاء عن صفاء في هذه الأجواء.. صفاء القلب والروح والمكان.. فجلست مُكرهة تنتظر أن تصفو الأجواء لترى معالم الطريق.

الإمام مولاي الطاهر

رافق المؤذن علاَّل جثمان الإمام مولاي الطاهر إلى مثواه الأخير مع قلة قليلة جدًّا لا تتعدى سبعة أشخاص.. وودعه بدموع غزيرة من شدة القهر.. لأن الجائحة لم تكتف بقتله في غرفة الإنعاش بعد أسبوعين من المعاناة، بل حرمته من جنازة مهيبة تليق به.. يشارك فيها المصلون والفقهاء ومريدوه وكل مَنْ تَعَلم على يديْهِ.

وقف قرب قبره يرثيه قائلًا:

"–أشهد أن قلبك كان متعلقًا بالمساجد، حتى حين أغلقوا المساجد بسبب كورونا كنت تحضر إلى المسجد قبيل الأذان، تطوف حوله باكيًا داعيًا أن يرفع الله هذا الوباء لتعود المساجد إلى سابق عهدها بيوت عبادة ومكان للراحة النفسية، وبعد الأذان تصلي قريبًا من عتبة المسجد وترحل إلى حال سبيلك، وكنت تقول لي يوم تُفْتَح المساجد : سأحضر مهرولًا في مشيتي حتى لو كنت في أقصى المدينة، سأدخل إلى رحاب مسجدنا مسرعًا.. وأسجد شكرًا لله بأن عادت بيوته تضمنا إلى

حضنها من جديد، لكنك رحلْتَ قبل أن يتحقق حلمك، وأنت الَّذي قضيت أغلب حياتك بين بيوت الله.. كما أشهد أن رحيلك خسارة".

غالب دموعه فغلبته وتوقف عن الكلام باكيًا، كانت رغبته في البكاء أقوى من رغبته في التعبير عمَّا في صدره فتوقف عن الكلام.

مولاي الطاهر كان طاهرا سرًّا وعلانية، ثوبًا وجسدًا، فتح عينيه في عائلة محافظة، مجاورة لضريح يُنْتسب لأحد الأولياء الصالحين.. شب مولاي الطاهر في تلك الزاوْيَة على ذكر الله، وحفظ كتاب الله منذ صباه، وتفقه في علوم الدين وتبحَّر في أصول الشريعة في مطلع حياته.. كما مارس التدريس في الكتاتيب القرآنية أيام شبابه.

مولاي الطاهر من الأشخاص الذين إذا تذكرْتَه ابتسمْتَ لفصاحته في اللغة، وإذا حاورْتَه استفدْتَ منه لغزارة علمه ولدقته في التعبير، وإذا جالسْتَه استمتعْتَ بروحه المرحة، وبالمستملحات الَّذي يُغذي بها مجالسه.

كان إمامًا وَرِعًا، يغسِّل الموتى مجانًا، ويشارك في الجنازات مُساهمًا، ويعطي الدروس الدينية بين صلاتي المغرب والعشاء، ويؤم بالمصلين، واليوم يدفن كأي غريب مجهول الهوية، حتى تقديم العزاء تَم أغلبه عبر

الهاتف لأفراد أسرته الَّتي تعيش في حيرة من أمرها، في حجر صحي مفروض عليها، ولا أحد في الحي بادر بإقامة مأتم للإمام أو عبَّر عن رغبته في ذلك.

لقد تسببت كورونا في هبوط حاد لأسهم القيم داخل بورصة الإنسانية، وزرعت الرعب في الجميع، وقتلت أجمل ما في الإنسان إنسانيته، فلا عناق اليوم.. ولا سلام بالأيدي، ولا تبادل الزيارات ولا صلة الرحم؛ خوفًا من العدوى!

مولاي الطاهر كغيره من المواطنين، كان يحترم البروتوكول الصحي من التباعد والكمامة والتعقيم، ويتخذ الحيطة والحذر في التدابير الاحتياطية، ولم يكن يتساهل في ذلك، ولكن لا مردَّ لقضاء الله، ما حصل له لم يكن في الحسبان.

اعتاد مولاي الطاهر كلما حصل على راتبه يزور أستاذه وشيخه الَّذي أصبح مقعدًا بحكم السن.. ولأن شهر أبريل 2020 صادف يوم الخميس فقد قرر زيارته في ذلك اليوم.

ركن سيارته جانبًا قرب (سويقة) وهي عبارة عن مساحة شاسعة خالية من البنايات، بها باعة متجولون يجتمعون كل صباح لبيع الخضروات والفواكه.

اشترى ما يلزم زيارة شيخه من فواكه.. فجأة جاءته أزمة ربو.. سقطت الفواكه من يديه.. فقد توازنه.. وسقط مرتطمًا بحافة الرصيف مخنوقًا، حاول جاهدًا خلع الكمامة واستنشاق هواء نقي دون جدوى؛ إذ إن يديه لم تُسعفاه.. كل من حامَ حوله من الحاضرين لم يقترب منه، ولم يتجرأ أحد على تقديم المساعدة أو الإسعافات الأولية.. إمَّا خوفًا من كورونا وإمَّا جهلًا بطريقة تقديم الإسعافات، فقط اتصلوا بسيارة الإسعاف الخاصة بكوفيد 19 التي جاءت بعد وقت وجيز ونقلته إلى المستشفى.. وبسبب اختناقه الحاد اعتقد الممرضون أنه مصاب بفيروس كورونا.. فأدخلوه إلى جناح المصابين، وقدموا إليه الإسعافات الأولية من أوكسيجين ومحاليل في اليد تلتها تحليلات طبية وصور بجهاز الراديو.

في تلك الأجواء أصيب مولاي الطاهر بالفيروس، وبدأت الأعراض تظهر تِبَاعًا، مع مشاكله الصحية وأمراضه المزمنة تضاعفت حالته، وازداد اختناقًا، تَم نقله إلى العناية المركزة والاستعانة بجهاز الأوكسجين

الاصطناعي الاختراقي.. ودخل في غيبوبة لم يفق منها أبدًا إلى أن فارق الحياة والتحق بالرفيق الأعلى.

تمكن ابنه البكر من استعادة السيارة الَّتي ظلت مركونة لأسابيع قرب "السويقة "ولم تكن في أحسن حال، كما استطاع استرجاع كل متعلقات مولاي الطاهر من المستشفى بعد تعقيمها، ضمنهم تقرير عن حالته الصحية والتحاليل الطبية الَّتي تقول إن مولاي الطاهر لم يكن مصابًا بالفيروس ولكن بمرض الربو وضغط الدم، وإنَّ سقوطه المفاجئ على الأرض سبَّبَ له ارتجاج في المخ ونزيف داخلي، مع إصابته بالفيروس كان يحتاج إلى معجزة لنجاته.

مولاي الطاهر كان دائمًا يقول في جلساته: انتهى زمن المعجزات وحل زمن الجد الصادق والعمل الصالح.

كما وقف ابنه مليًّا أمام ساعة يد لوالده الَّتي أهداها إليه أحد أثرياء الخليج عند نهاية درس من دروسه الدينية...

يومها خلع الخليجي ساعته من يده وأهداها إيَّاه قائلًا له:

"–هذه هدية مني إليك يا شيخ حتى تدعو لي كلَّما نظرت إلى الساعة".

كان يقول مولاي الطاهر حين يتحدث عن الساعة والأجل، أحمل في يدي ساعة غالية جدًّا، باهظة الثمن، تساوي الملايين جاءتني هدية، لكنها لن تستطيع أن تضيف إلى عمري ساعة واحدة، أو دقائق أو ثواني إلى أجلي.. إنَّها مجرد ساعة لا علاقة لغلائها بتوقيت قيام الساعة!

جمع ابنه كل متعلقات والده بما فيهم ورقة التنقل الاستثنائية وملابسه ومحفظة جيبه، بالإضافة إلى التسبيح المفضل لديه، الَّذي كان لا يفارق يده، وقد ظل ممسكًا به في يده وهو في غيبوبته حتى وفاته.. كما جاء على لسان بعض الممرضين الذين كانوا يشرفون على علاجه.

لقد ساقه قدره بخطى متعثرة إلى حتفه وانساق وراء قدره بخطوات ثابتة وإيمان راسخ، وترك خلفه زوجتين وخمسة أطفال، وعدد كبير من أتباعه ومريديه الذين كانوا يتبعونه ويلتحقون بأي مسجد استقر به للصلاة خلفه في الصلوات المفروضة.. وأغلبهم في صلاة التراويح بشهر رمضان لعلمه، ولعذوبة صوته، وحسن ترتيله لكتاب الله.. لكن حين مات أغلب محبيه لم يعلموا بوفاته إلا بعد دفنه بأسبوع!

عودة منير إلى الحي

مسك منير بيد ابنته وخرج مطأطأ الرأس وكله خَجَل وحسْرة، بعد أن رفضت مديرة المؤسسة منحه شهادة انتقال ابنته إلى مدرسة عمومية إلا بعد أن يسدد ما عليه من ديون، وهي مصاريف ثلاثة أشهر، اعتذر، توسل، لأنه لا يملك مالًا، وأنه عاطل عن العمل منذ اجتياح الجائحة.

عند خروجه من الإدارة خائبًا فوجئ بالعديد من الآباء يرغبون في نقل أبنائهم إلى مدارس عمومية بمناسبة الدخول المدرسي، شتنبر.. 2020 لا يختلف حالهم عنه كثيرًا!

في الطريق طلبت منه ابنته أن يحكي لها شيئًا عن والدتها الَّتي ماتت بسرطان الثدي منذ سنة، فهي تحب أن تسمعه وهو يحكي لها عنها، وظل يحكي لها طول الطريق أن والدتها المقيمة فوق السحب تراقبهما، ترافقهما، بل تبتسم إلى بثينة ابنتها إذا قامت بعمل جليل، وتحزن إذا أساءت بثينة التصرف.. ابتسامتها كانت رسالة محبة، تحيي الورود إذا ذبلت، وتبهج القلوب إذا حزنت.

وظل يحكي لها إلى أن وصلا إلى بيتهما، لعله بالحكي يحاول نسيان همومه..

لم يبق هناك ما ينير لمنير دربه في ظروفه الراهنة، لا مصباح ولا شمعة ولا قنديل.. بعدما كان صاحب وكالة سياحية للأسفار، يسكن في شقة راقية بحي كاليفورنيا.. وسيارة رباعية الدفع.. وزوجة جميلة وأنيقة تمسك حسابات الوكالة.. كل ممرات دروبه أصبحت مسدودة والإنارة فيهم باهتة.

قبل الجائحة بسنة سيدخل في دوامة الانكسارات؛ حيث أُصيبت هاجر زوجته بسرطان الثدي، صرفا كل مدخراتهما على العلاج.. لكن لمَّا بُتِرَ ثديها الأيسر لم تتحمل شكلها، بعدما أصبحت بوجه شاحب وملامح ذابلة وعيون حزينة.. بلا شعر في الرأس ولا رموش في العينين.. وبثدي واحد إضافة إلى آلام العلاج الكيماوي.. وهي الَّتي كانت تتباهى بشعرها الطويل الأملس والمتموج أحيانًا ذي اللون الأشقر.. وقوامها الممشوق وجمالها الأخَّاذ وأناقتها اللافتة للنظر.. تتحول اليوم إلى بقايا امرأة!

كل عبارات التشجيع الَّتي كانت تُقال لها تتلاشى أمام إحساسها أن ابتسامتها متسخة بتراب وغبار الحزن، وملطخة بدماء عملية بتر

الثدي.. فامتنعت عن استقبال الزائرين لها، ورفضت التجاوب مع الأطباء.. تدهورت نفسيتها ودخلت في حالة اكتئاب حاد، ورغم المصاريف الباهظة وتكثيف مدة العلاج فإنها لم تصمد طويلًا أمام هذا المرض، وفارقت الحياة، رحلت وتركت خلفها ابنةً عمرها لا يتجاوز سبع سنوات!

حين حلت جائحة فيروس كورونا أواخر شهر مارس.. وأغلقت الدول حدودها برًّا وبحرًا وجوًّا.. اضطر منير إلى إغلاق الوكالة وتسريح العمال.. وظل يقتات من بيع التحف الَّتي كان يقتنيها رفقة زوجته من أغلب الدول السياحية الَّتي كانا يتعاملان معها أو يزورانها، كل أصحاب "البازارات" يعرفونه ويشترون منه تلك التحف بثمن بخس.. كان يعلم ذلك لكن ليس أمامه حل آخر!

حين نفدت التحف، واشتدت الأزمة عليه باع السيارة.. وبثمنها ظل يعيش ويدبر أموره مع ابنته، والديون تتراكم عليه مع الأيام، حتى البنوك بعد جدولة تلك الديون لم تؤجلها إلا أربعة أشهر!

لم يبقَ أمامه إلا بيع الشقة وتسديد الديون الَّتي عليه، والعودة إلى بيت والدته العتيق بالحي المحمدي.. الحي الَّذي ولد وتربى فيه لينقل ابنته إلى مدرسة الحي الَّتي درس بها، ابنته الَّتي كانت تدرس في مدرسة

خصوصية باهظة التكاليف ما بين مصاريف التعلم والنقل المدرسي ووجبة الغذاء!

سيعود إلى حيه ليبدأ من الصفر بسبب رجل صيني كما يعتقد، أكل وطواطًا مريضًا، وها هو بلا ذنب يدفع الثمن، وعليه أن ينطلق من جديد كما فعل أول مرة.

منير ابن حي شعبي من أسرة فقيرة.. تربى يتيم الأب.. بعد حصوله على الإجازة في العلوم الاقتصادية اشتغل بعدة شركات سياحية، فكسب خبرة كبيرة وعلاقات متشابكة، وحين التقى بهاجر قررا إنشاء وكالة سياحية خاصة بهما بعد زواجهما.

نجح المشروعان؛ مشروع الزواج ومشروع الوكالة، وعاشا في رغد، وحققا أمانيهما، لولا مرض هاجر المفاجئ وموتها، ونزول الجائحة كالصاعقة، هنا انقلبت حياته رأسًا على عقب، وعاد من حيث انطلق وفي رقبته مسؤولية طفلة تفتقد الحنان وتشعر بفراغ كبير واشتياق أكبر إلى والدتها.

باع الشقة وكثيرًا من أثاثها الرفيع، وسدد ديونه.. ونقل الباقي إلى بيت الأسرة حيث استقر مع ابنته في بيت والدته الَّتي استقبلتهما بالأحضان.

ظلت والدته الحاجة حليمة تعيش في بيتها العتيق بالحي المحمدي وحيدة منذ هجرة ابنتها فاطمة الزهراء إلى كندا بعد زواجها من زميلها وإقامتهما مع الحاجة لمدة ثلاث سنوات.. لكنهما رحلا رفقة ابنتهما شيماء.

سفر فاطمة الزهراء جعل الحاجة حليمة تحس بالوحدة أكثر من الوحدة الَّتي كانت تشعر بها حين ترملت وهي في عز شبابها لمَّا توفي زوجها مخلفًا لها مسؤولية طفلين صغيرين؛ منير وفاطمة الزهراء، فشمَّرت عن ساعديها واشتغلت حتى حققت فيهما كل ما تتمناه.

بعودة ابنها وحفيدته عادت لها الحياة والبهجة والابتسامة، واستعادت إحساسها بأهميتها وبمسؤوليتها تجاه الابن والحفيدة في كل ما يحتاجانه.

أصبحت كلما دخلت صباحًا إلى غرفة منير الَّتي اعتكف بها تراه ممددًا على السرير ينظر إلى السقف طويلًا ويفكر مليًّا، تخاطبه مشجعة:

"–اصبر يا ولدي، الصبر مفتاح وعلاج، ولا تنسَ أن الله مع الصابرين، ما ضاقت حلقاتها إلا وفرجت رحمة منه بنا ".

يجيبها بصوت منخفض يكاد يكون همسًا:

"–ما عدت أملك إلا الصبر، سأصبر مرغمًا في انتظار الفرج".

أمَّا والدته فكانت في غاية السعادة لأن ابنها عاد إلى حضنها، عاد رفقة حفيدتها وملأ عليها البيت حسًّا وحركةً وأُنسًا...

هي كل ما تتمناه من دنياها أن يعيش ابنها تحت جناحيها والحفيدة في حضنها، والباقي لا يهم بالنسبة إليها.

نَعْيٌ في الفيس بوك

كان كريم يظن أنه إذا اشترى شقة ودكانًا في بلده المغرب، سيُعيد كرامته ومعها ستُعاد كبرياؤه بعد أن تنازل عنهما لزوجته الأجنبية العجوز مقابل حصوله على أوراق الإقامة والجنسية.

كان يظن أنه إذا بعث مبالغ مالية وهدايا فاخرة سيُخرس الألسن الَّتي تلوك سيرته في غيابه طول السنة..

كان يظن أنه إذا بعث والدته إلى العُمرة واشترى لأخيه سيارة رباعية الدفع للاستعمال الأسري سيتخلص من ألسنة الأقارب والأصدقاء وهي تسخر من أوراقه الَّتي تجاوزت الخمسين سنة من العمر..

كان كل حلمه أن يعود إلى المغرب بعد وفاة زوجته العجوز والاستفادة من إرث مريح فيشتري ضيعة فلاحية مجهزة بكل أدوات الراحة يقيم فيها بقية عمره، ويتزوج بفتاة مغربية يستعيد معها كل ما ضاع منه.. وهو لا يدري إن كانت فحولته ستسعفه حينئذٍ أم لا!

كان (كريم) قمَّة الكرم، اسم على مسمى، كريمًا مع الجميع بهداياه، بعطاياه، بابتساماته، وبزياراته، بصلة الرحم، كلما حلَّ بالمغرب في العطل الصيفية مع حرمه المصون.

في فاتح أبريل 2020–ولم تكن كذبة أبريل– رأى أحد أصدقاء الطفولة صورة كريم في الفيس بوك مع تعزية من الجالية المغربية بإيطاليا تقول:

"بعد صراع مرير مع فيروس كورونا بأحد مستشفيات ميلانو الإيطالية، يلتحق المهاجر كريم سندس صباح اليوم بالرفيق الأعلى، كريم مهاجر مغربي من الدار البيضاء، وسيُدفن بالديار الإيطالية، لأن حدود كل الدول مغلقة، ومدن كل الدول مغلقة، وبيوت كل الدول مغلقة أيضًا! ولا مجال لنقل جثمانه إلى المغرب.. ولهذا نتقدم بأحرِّ التعازي إلى زوجته الإيطالية فينسيتا وأسرته المغربية بالمغرب.. وإنا لله وإنا إليه راجعون".

حين قرأ المنشور أحس بالارتباك، وشعر بالاضطراب، واحتار في الأمر.. أيصدق الخبر؟ أم هي مجرد كذبة أبريل؟ فعاد إلى التعليقات عندئذٍ تأكد من صدق وفاته وهو يقرأ تعليقات أصدقائه وهم يتحدثون عن ملابسات وفاته أيام الحجر!

في مساء ذلك اليوم زار أسرته لتقديم واجب العزاء في هذه الفاجعة، فأصيب بصدمة أخرى وهي أنَّ أسرته لا علم لها بمرضه ولا بوفاته، وتركهم يتساءلون وتسلل منسحبًا!

كادوا يُصابون بالجنون والأسئلة تتقاطر عليهم من كل صوب..

كيف يحدث هذا دون علمهم؟ لماذا لم تتصل بهم زوجته وأصدقاؤه؟ أين اختفوا؟

كيف يموت هو وتعيش زوجته العجوز! كيف يقتل الفيروس شابًا في ريعان شبابه ولا يفتك بامرأة تجاوزت الخمسين! وغيرها من الأسئلة.

بعد بحث مضن بين الأرقام، وبعد جهد جهيد من الاتصالات، تبلغهم زوجته فينسيتا بوفاته وأنه دُفن بإيطاليا لأن الظروف فرضت ذلك ولأنه يحمل الجنسية الإيطالية.

قضوا أيامًا بين صعود وهبوط، قضوها مشْيًا ذهابًا وإيابًا بين وزارة الخارجية المغربية والسفارة الإيطالية إلى أن حصلوا على شهادة الوفاة وأوراقه الثبوتية، ورسالة تعزية ومواساة من السفارة الإيطالية.

وحين مات اكتفى المعزُّون بتقديم التعازي عبر الهاتف، معتكفون ببيوتهم وكأنه لم يفعل فيهم يومًا صنيعًا وهو الَّذي كان جيبه وصدره مفتوحًا للجميع ويده ممدودة دون حساب.

مسكين كريم لم يحظَ بمأتم لا في إيطاليا ولا في المغرب، لأن كورونا منعت الأعراس والمآتم وصلاة الأعياد.. هذا ما كانت تردده والدته كلما تقدم أحدهم بتعزية عبر الهاتف.. مضيفة: مسكين كريم عاش مهملًا في حضن وطنه ومات بعيدًا عن بلده، ويُدْفن في أرض المهجر غريبًا كنبتة زُرِعَت في غير أرضها.. مسكين كريم جرى خلف الدنيا ولم يترك خلفه ذرية تدعو له بالرحمة.. مسكين كريم لم يفلح في بلده ولا في بلاد الغربة، مسكين كريم حصل على شهادات جامعية، فلم تنفعنه في أي مباراة ولم يوفَّق في الحصول على أي وظيفة، حينئذٍ فضَّل الهجرة السرية، وعاش عالة على تحفة تاريخية سُمِّيت مجازًا زوجته، مسكين.. واللهِ مسكين..

كل من سمع بخبر وفاته شعر بالحزن وتعاطف معه، حتى جيرانه الإيطاليين تعاطفوا معه، وقد جاء في تدوينة أحد جيرانه في العمارة الَّذي تقع شقته قبالة شقة كريم يقول فيها:

"وفاة كريم المغربي كان خسارة للقريبين منه وصدمة للجميع، حين فرض الحجر الصحي اعتكفت زوجته في البيت، واعتزلت الناس، أمَّا كريم فظل يخرج ويدخل مستهترًا بحياته دون كمامة حتى صادف الفيروس في طريقه لأنَّه لم يكن يصدق بوجود حقيقي لفيروس قاتل اسمه فيروس كورونا (كوفيد19) ولمَّا أصيب به ظل يصرُّ على إخفاء مرضه وعدم الاعتراف به، إلى أن تفاقمت حالته حتى دخوله إلى المستشفى لم يكن يعلم به أحد من أصدقائه".

مات كريم وهو يعتقد أنه بعد مدة سيخرج من المستشفى، وخرج فعلًا لكن جثةً في صندوق!

سلمى اليوتيوبرز

لم تسلم سلمى من كل الأقدار المقدرة الَّتي عاشت مراحلها بكل وجع ومرارة.. كما لم تسلم من كل الألقاب الَّتي طاردتها، والمسميات الَّتي عانت منها، متدحرجة في الألقاب من لقب عانس إلى لقب مطلقة، فلقب أرملة.. ومع كل لقب كانت ترى في عيون الناس إمَّا الشفقة وإمَّا الشماتة وإمَّا عيون مفترسة.

عاشت سلمى بعد وفاة والدها بين إخوتها سنينًا في انتظار الفرج.. وطال الانتظار حتى فاتها قطار الزواج.. فاشتهرت بين معارفها بلقب العانس، وصفًا وشتمًا.. والملأ يتساءل عن سر عدم زواجها إلى الآن رغم جمالها المقبول!

حين تقدم إلى خطبتها يوسف الملقب بالنجَّار، رغم أنه سِكِّير ويتعاطى القمار.. قبلت به ووافقت على مضض لأنه الوحيد الَّذي تقدم لخطبتها..

بعد سنة من زواجها عادت إلى بيت إخوتها بعد خصام وشجار استمر طوال سنة زواجهما، تعرضت خلالها إلى كل أنواع الشتم والضرب والعنف النفسي.

لم تمض إلَّا أيام على عودتها إلى بيت الأسرة حتى اشتهرت بين معارفها بلقب مطلَّقة.. بمجرد ما فصل القاضي بينهما بالطلاق.

لم تسلم من ألسنة الناس وهي عانس.. وازداد تطاول ألسنة الفضوليين عليها أكثر وهي مطلقة، الكل من الذكور يراها بضاعة مستعملة، ويطمع في الاستمتاع بها، حتى اعتكفت في البيت وما عادت تخرج منه إلا نادرًا!

حين تقدم للزواج منها الحاج المعطي ترددت كثيرًا، وفي الأخير قبلت رغم أنه تجاوز الستين بسبع سنين وهي على مشارف الأربعين.

الحاج المعطي بعد وفاة زوجته، وتحليق الأبناء بعيدين عنه مستقلين بحياتهم، خرج يبحث عن امرأة متوسطة العمر والقامة، سليمة ومعافاة.. خادمة مطيعة تصلح ممرضة أولا، وونيسة له في وحدته ثانيًا، وزوجة عند الضرورة.

في السنة التاسعة من زواجها ستشتهر بين الناس بلقب الأرملة، بعد وفاة زوجها، لكن الَّذي زاد الأمور تعقيدًا وأربك حساب الفضوليين، هو كيف تنجب سلمى طفلًا من زوجها وهو شيخ هرم وهي قد تجاوزت الأربعين! ونسجوا حول ذلك قصصًا وحكايات.

رغم أن الورثة من أبناء الحاج تنازلوا لها عن السكن شفويًّا وليس كتابة.. إلا أنها حُرِمَتْ من راتب تقاعد زوجها لأنه تزوج بها بعد تقاعده، لذلك لا حق لها في الراتب، هذا ما ينص عليه القانون كما قالوا لها.

بدأت الأرملة سلمى تستقل بذاتها وتعتمد على نفسها، وهي في السوق تحارب من أجل لقمة العيش لها ولابنها.. وقفت في الموقف أيامًا.. اشتغلت في البيوت خادمة ومربية وطباخة، كما اشتغلت في الشركات منظفة.. وفي المطاعم مساعدة طباخ، فاكتسبت خبرة في الطبخ والحلويات.. ولأنها تتعرض كثيرًا للتحرش في البيوت من طرف الأزواج وفي الشركات من طرف الموظفين، وفي المطاعم من طرف عمال المطابخ.. قررت أن تغير مسارها؛ فبدأت تعد المعجنات وتهيئ الحلويات وتبيعهم تارة أمام القيساريات وأيامًا أمام أبواب المساجد.. وفي أوقات فراغها تسبح بعيدًا عبر هاتفها في الواتس آب واليوتوب والفيس بوك..

إلى أن اهتدت إلى فكرة، وقررت أن تخلق لنفسها لقبًا جديدًا يليق بها من خلال المهنة الَّتي اهتدت إليها.. ولأول مرة تهب نفسها لقبًا جديدًا بعيدًا عن ألقاب معارفها (لقب اليوتيوبرز).

طلبت من إخوتها وأبنائهم المتمكنين من التكنولوجيا أن يفتحوا لها قناة تحت عنوان "قناة سلمى أم عبد الله للطبخ والحلويات"

وشرعت في العمل بقناتها، تحت شعار "المسكنة والاستجداء وسيلتان للثراء "، انسلخت عن جلدها واستعانت بكل أساليب الدهاء والذكاء لجذب انتباه المتابعين باستضافة زميلات لها في قناتها وظهورها في قنواتهن، وبتقديم الروتين اليومي لأشغال البيت وبالادعاء في كل مرة أن هذه الأكلة الَّتي تعد تقدمها بناء على طلب كثير من المتتبعات اللواتي يرغبن في معرفة كيفية إعدادها.. وكلما اشترت جهازًا أبلغت متتبعيها أنه هدية مهداة من إحدى المهاجرات بالديار الأوربية، حتى تُحمس الجميع على تقديم الهدايا لها.. ثم أصبحت بعد ذلك تتنقل بين المحلات التجارية وتعرض بضائعهم في قناتها مقابل مبلغ مالي أو هدايا من بضائعهم.. كما تقوم بإشهار قنوات حديثة العهد طبعا وَفْق مبلغ مالي مُتفق عليه مع صاحبة القناة.

ظلت شهرة قناتها تتسع أكثر يومًا بعد يوم، وعدد المتابعات في تصاعد مستمر.. والهدايا تنهال عليها من داخل المغرب وخارجه.. ومداخيلها المالية من اليوتوب وصلت إلى أرقام خيالية.. فَوْق ما يتصور المواطن البسيط.. والأغرب أنها معفاة من الضرائب!

وبجانب القناة شرعت في إنشاء المشاريع.. وأنشأت أول الأمر مخبزة للحلويات، فمطعم للأكلات المنزلية الجاهزة أو تحت الطلب.. ثم اقتنت بقعة أرضية بضاحية المدينة لبناء فيلا فخمة.

لما وصلت إلى ما وصلت إليه من الثراء.. تفرغت للتفكير في نفسها ورغبات النفس.. والاعتناء بذاتها واحتياجات الذات، والاهتمام أكثر بجمالها ومقتنيات الجمال.. والتصرف في كل الأحوال بأنوثة ودلال.

وكما اختارت لقبًا يليق بمهنتها، انطلقت في البحث عن زوج يليق بمكانتها، ويؤنس وحدتها، ويبعث الدفء في فراشها، ويعيد الروح إلى مشاعرها.. وفي أثناء البحث تعثرت؛ فوقعت في الحب، لأول مرة في حياتها، تذوقته وصُعقت به؛ إذْ تعلق قلبها بشاب متعلم، لكن أصغر منها بعدة سنوات، وعاطل عن العمل.

ما أقسى الحب بعد الخمسين، بعد قحط وجفاف يأتي عشق مجنون، فيتخلى العقل المتزن عن دوره في التدبير، ويتولى القلب المرهف مسألة التسيير فتنقلب الأمور وتحدث الكوارث.

اتخذها مصدر رزق باسم الحب، واتخذته زوجًا باسم العشق.. فكان لها واجهة أمام الطامعين في ثروتها وحارسًا على مشاريعها الَّتي تتوسع باستمرار.. وأصبح المتصرف الأول في ثروتها بكل حرية.

ظل ابنها عبد الله في شجار دائم مع زوجها منذ الليلة الأولى من زواجها.. وتحت تأثير المخدرات ذات يوم، قام بتصفية جسدية لزوج أمه بعد عراك عنيف بينهما، حول مدخول المخبزة.

بعد كل النجاحات والشهرة، عادت الألقاب تطارد سلمى من جديد، ولتشتهر بين معارفها هذه المرة بلقب (أم القاتل) الأم الَّتي جعلت من ابنها مجرمًا.

شجرة غيثة أم الغيث

كانت لصديقي بالجنوب الشرقي للمغرب عَمة كلها هِمة، وكل يوم تزداد حيوية ونشاط.. البشاشة لا تغادر ملامح وجهها.. وكلمات الترحيب تتخلل كلامها عند الترحيب أو قضاء الحاجة حتى أصبحت كل الساكنة كبارًا وصغارًا تناديها عمتي.. إنها عمة الجميع!

كانت العمة غيثة أم الغيث سخيَّة في عطائها داخل قريتها وبمنزلها.. سخاء يتحدى الألوان والظروف.. كريمة إلى درجة يأخذ منها الكرم الدروس والعبر ويوزعها على العابرين.. حتى الفقر يستحيي من كرمها فيتخلف إلى الوراء قليلًا حتى تقضي للزائرات حاجاتهن.

تفتح باب منزلها من طلوع الفجر إلى غروب الشمس.. وأكثر الزيارات لنساء القرية في الصباح ولعاملات التعاونية في المساء لشرب الشاي والفواكه الجافة، للدردشة وتحقيق مطالب وحاجات تقدمت بهن الزائرات.

الحاجة غيثة تُغيث كل من يلجأ إليها.. لا تمتنع.. لا تعتذر، لا تتخلف عن تقديم المساعدة الَّتي تنحصر عادة في طلب خضروات أو توابل أو أواني منزلية أو أدوات فلاحية، وأحيانًا مبالغ مالية لحل ضائقة أو أزمة خانقة حلت ببعضهن.. كما كانت تشغل أغلبهن ضمن تعاونية محلية وتوزع الأرباح عليهن بالتساوي.

أما زوجها فكان ينظر إليها بعين الرضى والحمد.. لأنه يحس أن كل الخير الَّذي ينعم فيه والرزق الَّذي يتصرف فيه من بركة سخائها وعطائها، لذلك يشجعها بابتسامته وإيماءات من رأسه.

ذات صباح ربيعي قررت العمة السفر إلى الدار البيضاء، حاول أبناؤها وأحفادها منعها من السفر.. طالبين منها أن تنتظر إلى فصل الصيف، لكنها أصرت على ذلك بحجة أن في عطلة الصيف أغلب أقاربها يحجون إليها من مدينة الدار البيضاء لقضاء العطلة في رحاب بيتها.. وبإصرارها سافرت في ذلك اليوم.

قبيل صلاة الظهر جاءت الحاجة رحمة إلى المسجد تطلب مقابلة الإمام.. حين انفردت به، أبلغته أنها رأت في منامها قبل الفجر بقليل، المرحومة يامنة قرب منزل الحاجة غيثة تحت شجرة الزيتون وحين سألتُها:

ماذا تفعلين هنا في هذا الوقت وأنت محسوبة على الموتى؟

أجابتني:

جئت أنتظر الحاجة غيثة لآخذها معي.. سترافقني بعد أن تستحم وتغتسل..

ظل الإمام يستمع إلى حكيها باهتمام كبير، كانت تحكي وهي مرعوبة ولا تدري إن كانت رؤية أم أضغاث أحلام.

احتار الإمام في اختيار الرأي السديد.. وطلب منها أن تبلغ زوجها.. لأنه الوحيد الَّذي له الصلاحية في اختيار الموقف المناسب.

اتجهت إلى منزل الحاجة غيثة، ووقفت تحت نفس شجرة الزيتون الَّتي وقفت تحتها يامنة.. في انتظار زوج الحاجة غيثة.

عند خروجه متجهًا إلى المسجد لأداء صلاة الظهر استوقفته وأبلغته بالحكاية..

في البداية لم يصدق حكايتها لكن تحت إلحاحها اتصل عبر هاتفه المحمول بابنه رضوان وطلب منه أن يلحق به في المسجد.

بعد صلاة الظهر اجتمع الوالد وابنه مع إمام المسجد وأستاذ القرية للتداول حول الموضوع.. ولتخفيف الانزعاج والقلق الَّذي أصاب الوالد وابنه اختصر الأستاذ الموضوع في جملة واحدة؛ وهي إن كانت رؤية فلا مفر من قضاء الله.. وإن كانت مجرد أضغاث أحلام فلا خوف عليها ولا داعي للقلق.. ورجح الأستاذ بأن يكون ذلك مجرد كابوس ليليٍّ عانت منه الحاجة رحمة.

ظل الأبناء والأحفاد يتصلون بها بين الفينة والأخرى حتى أزعجوها باتصالاتهم.

ابنها البِكر رضوان كان أكثرهم انشغالًا بالرؤية.. لكن مرور اليوم الأول بسلام.. واليوم الثاني أعاد لهم الاطمئنان، فتوقفوا عن إزعاجها في اليوم الثالث.. وانشغلوا عنها بأعمالهم.

ظلت الحاجة تتنقل بين أقربائها ضيفة معززة مكرمة.. والكل يتهافت ويتسابق على استضافتها.

ذات ظهيرة استيقظ رضوان ابنها البِكر بعد دخوله إلى غرفة النوم لينام فترة القيلولة على صراخ وعويل بكافة أرجاء البيت؛ لقد ماتت الحاجة غيثة وانتقل صداها إلى القرية بطولها!

سافر الجميع في التو واللحظة.. وحول بيت المضيفة تجمهروا.. كل ما استطاعوا معرفته أنها بعد استحمامها في الحمَّام التقليدي وعودتها إلى البيت استوت في جلستها وأسندت ظهرها على المخدة طلبًا للراحة.. فأسلمت روحها لباريها.. ولا توجد تفاصيل أخرى.

بعد الإجراءات الطويلة والمعقدة.. نُقِل جثمانها إلى مسقط رأسها حيث تقيم لتُدفن هناك.

تسللت الحاجة رحمة إلى المقبرة بعد ساعات من دفن جثمان غيثة أم الغيث.. كم كانت صدمتها مفجعة وهي ترى قبر غيثة بجوار قبر يامنة.. فارتفع بكاؤها إلى درجة العويل والصراخ.. متسائلة لماذا اختارتها الرؤية دون نساء القرية؟ وما الغاية من تلك الرؤية؟ أهي شريرة وسلبية إلى هذا الحد أن ترى الرؤية ولا تقوم بأي عمل جليل تجاهه؟

أصيبت في عقلها ونفسها وجسدها واعتزلت الناس.. أصبحت تصوم نهارًا وتقيم الليل.. ولا تأكل إلا قليلًا.. ولا تنطق إلا بما قلَّ ودلَّ.. وأغلبه مُبهم وغامض.

ذات صباح عثرت عليها الساكنة ميتة تحت شجرة الزيتون الَّتي كانت ملتقاها بيامنة.. عيناها جاحظتان، وضغط شديد على شفتها

السفلى، وأصبع السبابة بيدها اليمنى على خدها لهول ما رأت.. ولا أحد يدري ماذا رأت؟

أما منزل الحاجة غيثة حلَّت به الوحشة ودخل في عزلة.. وأصبح بابه لا يُفتح طول النهار إلا لخروج أحد أفراد الأسرة أو دخوله.. والقرية تعج بالغرباء النازحين إليها، والجفاف يضرب حقول القرية، ويتحالف مع الفقر ضد الساكنة.. التي هاجر بعضها إلى المدن بحثًا عن مصدر رزق جديد.

كل عجائز القرية أصبحن يجتمعن تحت تلك الشجرة.. شجرة الزيتون.. يستعدن تحت ظلها ذكريات الحاجة غيثة ورحمة ويامنة وكل نساء القرية الفاضلات.. ويتبركن من الشجرة الَّتي أصبحت تحمل اسم "شجرة غيثة أم الغيث."

شجرة الزيتون بحقلها تعود ملكيتها إلى صديقي الَّذي ورثها عن والده، وكلما فكر في بيعه بسبب الجائحة الَّتي ضربت الاقتصاد والعباد تذكر عمته غيثة أم الغيث وتراجع عن قرار البيع.

بباب المستشفى

كان حلم رَحُّو أن يكون ابنه السالمي فقيهًا يؤم المصلين ويعطي الدروس في المسجد، وكان حلم الابن أن يكون جنديًّا مثل عمه؛ إذ كانت تبهره البذلة العسكرية.

ألحقه رحو ابنه السالمي بالكتّاب (المسيد) وهو ابن السابعة من عمره، ثم تدرج في الزاوية حتى تخرج منها حافظًا لكتاب الله والألفية وكل ما احتوى عليه كتاب البخاري ومسلم من أحاديث نبوية!

ظل يتنقل بين القرى والمداشر والواحات إمامًا ومحدِّثًا في المساجد، لكن طموحه كان أكبر من ذلك.. بعد وفاة والده قرر أن يحقق حلمه والتحق بالجندية دون أن يستشير أهله أو يأخذ رأيهم.

في مدينة تمارة استكمل تداريبه في التكنة العسكرية.. وتسلم تعيينه جنديًّا بمدينة كلميم.

عاد إلى مسقط رأسه نواحي مدينة الراشدية.. تزوج ابنة عمه خلال أسبوع وسافر بعروسه إلى مقر عمله، استقر بأحد البيوت المقررة للجنود وانطلق في عمله بكل حيوية وبروح وطنية.

حين أنجبت له زوجته ابنته الأولى كانت فرحته لا حدود لها، ولم تَقِل فرحته عند إنجاب الابنة الثانية، ولم يَسْوَّد وجهه عند استقباله الابنة الثالثة.. تكررت العملية ست مرات، وفي كل مرة كانا يبحثان عن الولد، وفي كل محاولة كانا ينتظران مجيء ولي العهد.. لكنه لم يشرف إلَّا في المرة السابعة.. واستطاع الرضيع أن يبعد عن بيتهم هالة الحزن والكآبة وأن يُزِيل عن والده "لقب أبو البنات".

بحكم عمله ظل السالمي يتنقل من مدينة إلى أخرى ومن ثكنة عسكرية إلى أخرى وخلفه أسرته تتنقل بتنقله إلى المدن الَّتي يعمل بها، وكلما اندمجوا في بيت أو انسجموا مع منزل بجيرانه إلا وانتقلوا إلى غيره بمدينة أخرى حسب انتقال رب الأسرة، والبنات بدورهن في تنقل دائم من مدرسة إلى أخرى، ومَنْ تتعثر فيهن تتوقف عن الدراسة.

مع السنين بلغت البنات سن الرشد.. ثلاث تزوجن في مدن متفرقة، وفي انتظار زواج الأخريات توفت الأم بمرض سرطان الرحم، فتولى

السالمي دور الأب والأم في البيت وخارجه.. ولم يفكر إطلاقًا في الزواج، وقَلَّ راتبه كثيرًا عندما أُحيل على التقاعد.. وأصبح المعاش هزيلًا.

تفرغ لشؤون البيت عند زواج الرابعة والخامسة من بناته، كما عاد إلى حرفته الأولى فقيها في المآتم وبعض المناسبات مثل العقيقة والختان، وغسل الموتى.. أمَّا يوم الجمعة فيُخَصَّص لقراءة القرآن على قبور الموتى.

نجح ابنه شرف الدين في امتحان البكالوريا بامتياز، وسافر لمتابعة دراسته في فرنسا على نفقة الدولة.. أحس الفقيه السالمي بفراغ كبير خصوصًا بعد زواج ابنته الصغرى، فقرر العودة إلى مسقط رأسه والاستقرار بقريته حتى يُدفن بجوار والديه.

أصبح كلما جمع مبلغًا ماليًّا من معاشه التقاعدي ومن حرفته الدينية وفلاحته البورية، يبعث ببعضه إلى ابنه في فرنسا، وبعضهم الآخر يخصصه لزيارة بناته بمدنهن، حاملًا لهن من خيرات قريته إضافة إلى هدايا وفواكه.

كانت من عادات الفقيه السالمي أن يطوف مصليًا بمساجد أيِّ مدينة يزورها.. فلا يترك مسجدًا من مساجدها إلَّا ويصلي فيه فرضًا من

فروض الصلوات الخمس.. وكل همه ألا يضيع منه فرض في وقته مخلفًا وراءه كل هموم الدنيا إلى أن أصيبت ابنته الوسطى بمرض السرطان.. أدرك ساعتها أن هذا المرض اللعين وراثي في أسرته وأن بناته مهددات به.

لازم ابنته في البيت ورافقها في المستشفى، وساندها طوال مرضها، كان يتألم في صمت ويئنُّ بلا صوت، وهو يرى السرطان ينخر جسد ابنته قطعة، قطعة.. ويلتهم أعضاءها عضوًا عضوًا.. وهي تقاوم وتهزل في غياب الزوج.. تقاوم وتهزل بمفردها، حتى فارقت الحياة، تاركة خلفها ولدًا وبنتًا.

أصَرَّ السالمي على اصطحابهما معه والعناية بتربيتهما بناء على وصية ابنته خوفًا عليهما من الأذى.. لأن والدهما كان يرغب في الزواج، معلنًا لزوجته عن رغبته في ذلك، حتى قبل مرضها.

ظل السالمي يعتني بحفيدَيْه تربية ورعاية حتى تفوقا في دراستهما بالابتدائي والإعدادي.. ذات صباح عاد من السوق ليجد رسالة مع اختفاء الحفيدَيْن، تمعن في الرسالة وهو يقرؤها مصدومًا.. مكتوب فيها:

"معذرة جدي لا نستطيع العيش في القرية بعد نجاحنا في الإعدادي.. سنسافر إلى المدينة بحثًا عن مستقبلنا ومتابعة دراستنا في بيت والدنا.. وداعًا يا جدي".

ظلَّ يفكر مترددًا.. أيلحق بهما ويتشبث بالوصية أم يتركهما يجربان حظهما.. وفي الأخير فضَّل أن يتركهما بضعة أشهر ثم يزورهما مستطلعًا أخبارهما.

بعد سفرهما بسبعة أشهر، حلت جائحة كورونا وأغلقت الدولة الحدود والمدن والمدارس.. وانتشر الوباء عبر تنقلات المسافرين.

ذات يوم من أيام الجائحة اختفى الفقيه السالمي بعد أن غسَّل صديقه الحاج علي شيخ القبيلة إثر وفاته بنزلة برد؛ حيث مشى في جنازته وشارك في دفنه.. ثم اختفى ولم يظهر له أثرًا.

تفقدت الساكنة الفقيه السالمي عند احتياجهم له.. طرقوا بابه بلين لكن عند سماعهم هاتفه يرن وأنينا يُسْمَع، طرقوا بابه بقوة وبلهفة، تمكنوا من الدخول بعد نزع قفل الباب، وجدوا الفقيه السالمي ملقى على ظهره لا يستطيع الوقوف ولا الكلام ولا الأكل، مخنوقًا.. شبه مغمى عليه، نقلوه على جناح السرعة إلى المستشفى، بباب المستشفى

كانت صدمتهم أكبر، طاقة المستشفى لم تعد تستحمل، إذ لم يجدوا له سريرًا ولا أوكسجين، حل الهرج وعلا الانتقاد والاحتجاج بين الحاضرين.

وفي انتظار سيارة الإسعاف لنقله إلى مستشفى آخر بمدينة أخرى.. تمدد الفقيه السالمي على ظهره بعتبة باب المستشفى في النزع الأخير.. نسي نفسه ووضعه، نسي بناته والمرض اللعين الَّذي يطاردهن.. نسي ابنه وغربته.. وحصر تفكيره في الوصية وفي حفيديه، ورغم أنه يحتضر ظل بكلمات متقطعة يوصي أقربائه وأبناء عمومته بالاعتناء بحفيدَيْه إنْ عادا إلى القرية، وظل يوصيهم بحفيديْه حتى فارق الحياة.

الهجرة بين القضاء والقدر

عاد المهدي إلى بلده بعد انهيار نظام القذافي، ودخول ليبيا في فوضى وقيام المعارك بين الفصائل والقبائل، عاد خوفًا على سلامته من طرف العصابات أو اختطاف زوجته من طرف المليشيات الَّتي تمارس السلب والنهب علنًا.

فَرَّ هاربًا بعدما قضى ثلاثين سنة بليبيا وتزوج بمغربية من أصل عراقي، تعرف عليها بأحد الفنادق حيث تشتغل فيه محاسبة، ولم يزر بلده إلا مرة واحدة رفقة أسرته خلال تلك السنوات.

ولأن الأخبار الواردة من المحافظات لم تعد تبشر بالخير ولا تطمئن القلوب، حمل على وجه السرعة أهم ما لديه مما خفَّ وزنه وغلا ثمنه، وقاد أسرته عبر سيارته، يجوب بهم الطرقات مغامرًا، مراوغًا، متخفيًا، مسرعًا خوفًا من الوقوع بين أيدي الميليشيات، بصعوبة استعاد الأمان عند تجاوزه حدود ليبيا.

في دولة تونس تخلص من السيارة ببيعها إلى مهرّبي النفط بين الحدود، وجهز أوراقه للسفر رفقة أسرته عبر الباخرة إلى المغرب.

عند نزولهم من الباخرة خرَّ المهدي ساجدًا ومقبّلًا تراب بلده، فقد كان يحمل روحه وحياة أسرته على كفه وهو في ليبيا، ويعاني من الوحشة والغربة وهو لاجئ في تونس، عاد مفلسًا بعد أن دفع نصف ما معه علاوات وإتاوات لكل من ساعده للخروج من بؤرة المعارك بليبيا، والباقي تبعثر ما بين الفندق ومصاريف التنقل بتونس، فعاد مفلسًا يحمل معه همًّا ومستقبلًا مجهولًا لأبنائه قُصَيْ وهَانِيْبَال وهيفاء، وأعمارهم تتراوح بين تسع سنوات واثني عشر سنة.

المهاجر الَّذي لا يخطط للعودة، يوم يعود مجبرًا يشعر بالغربة أكبر من غربته بأرض المهجر، والمغترب الَّذي لا يدخر في وطنه، يوم يعود مكرهًا يعيش فيه فقيرًا؛ فالوطن حضن، إن زرعت فيه وردًا قطفته، وإن زرعت فيه شوكًا جَرَّحَك واكتويت به، والمهدي لم يخطط للعودة، ولم يذخرْ لِغَدِهِ وردًا، فاستقبله الإهمال الَّذي أهمل به وطنه.

تنقل مع أسرته بين أفراد عائلته ضيوفًا ثقالًا ليستقر بهم المقام في غرفة بكل منافعها بسطح إحدى العمارات، وخرج يبحث عن عمل أجير في المعامل والمصانع وقد تجاوز الخمسين من عمره، متحصرًا على

نفسه؛ إذ كان صاحب محل و مشاريع وأملاك بليبيا، عاد من الغربة إلى غربة جديدة، و ظل عاطلًا عن العمل، التجأ في نهاية المطاف إلى حمَّال بمتاجر درب عمر لإنقاذ نفسه وأسرته من الجوع والحاجة، وكلما خلا إلى نفسه صار يبكي بحرقة كطفل ضاعت منه لعبته أو والدته، فتكالبت عليه الهموم والأمراض، لم يصمد طويلًا، مات وفي قلبه حرقة عن وضعه المزري لأنه لم يأخذ العبرة من حياة والده الَّذي عاش سبعة وثلاثين سنة في الجزائر مقيمًا، و في سنة 1975 طُرِد رفقة أسرته دون متاع ودون تعويض عن أملاكه، وكأن التاريخ يعيد نفسه، ظل يستعيد في ذاكرته شريط والده ومعاناته ويقارنه بشريطه كلما انفرد بنفسه إلى أن فارق الحياة.

قُصَيْ أصغر أبنائه والوحيد الَّذي تمكن من الالتحاق بالمدرسة، لكنه تعرض للسخرية من زملائه في المدرسة من لباسه ولهجته، واسمه الغريب، وكلما سأله زملاؤه عن معنى اسم قُصَيْ

أجابهم بلكنته الَّتي تجمع بين اللهجتين:

"سمتني أمي قُصَيْ ومعناها صاحب التفكير العميق، وهو اسم قديم يعود إلى العصر الجاهلي، كان يحمله الجد الرابع لرسول الله هو قصي بن كلاب سيد قريش في عصره، الَّذي اتخذ داره لقريش دارا للندوة".

وباستغراب أكبر يسألونه عن سبب اختيارها هذا الاسم، وهم حوله ينتظرون الجواب، يجيبهم وكله حسرة:

"من سوء حظي وُلدت يوم قتل قصي (ابن صدام حسين)، ظهيرة يوم 22 يوليوز 2003 بمنزل في مدينة الموصل شمال العراق بعد حصار واشتباك مع القوات الأمريكية، وهي اللحظة الَّتي ولدت فيها، فاختارت لي أمي هذا الاسم" .

لم يستطع قُصَيْ مقاومة نظرات الناس وسخريتهم، فدخل في عزلة وانطوى على نفسه إلى أن غادر المدرسة دون رجعة، واحتضنه الشارع بعد وفاة والده؛ حيث تعلم فيه العدوانية بكل فنونها، واتخذ له صديقين أحدهما ابن أمٍّ عازبة والثاني هارب من الإصلاحية، فشكلوا عصابة بأسلحة بيضاء يعترضون المارة في جوف الليل أو عند بزوغ أول خيوط الصباح، ويسلبون منهم كل ما في حوزتهم، أما أخوه هانيبال عانى كثيرًا من اسمه وشكله، وكل من يسمع اسمه يسأله أهو اسم أم لقب أو كنية، ويجد نفسه مضطرًّا في كل مرة أن يشرح لهم عن اسمه، وقد سماه والده هذا الاسم تيمنًا باسم أحد أبناء معمر القذافي.

ظل هانيبال يشتغل حارس ليلي بإحدى الشركات، ثم انضم إلى إحدى الجمعيات الإحسانية ومنها انتقل إلى جماعة إسلامية، فتغير

شكله ولباسه للمرة الثانية، وبعد مدة وجيزة اختفى دون أن يعلم حتى أقرب الناس إليه مكان اختفائه أو الغاية من الاختفاء إلى أن تناهى إلى علمهم من طرف بعض الدعاة المتطرفين أنه في سوريا يجاهد هناك.

اشتغلت هيفاء بالملاهي الليلية، وحين جمعت مبلغًا ماليًّا تمكنت من الهجرة السرية بمعية والدتها عبر قوارب الموت، ولا أحد يدري إن كانتا قد نجحتا في الوصول إلى الضفة الأخرى أم استقرَّتا في قاع البحر.

لم يخطئ المهدي في اتخاذ موطن الهجرة مقرًّا ومستقرًّا فقط، بل أخطأ حتى في اختيار أسماء أبنائه الَّتي كانت عائقًا لهم، لو اختار لهم أسماء موطنه، وكان يتكلم معهم بلهجة بلده، ويحكي لهم عن تاريخ وطنه، ما أحسوا بهذه الغربة وبهذا الإقصاء عند عودتهم، أحيانًا الأبناء يدفعون ثمن أخطاء آبائهم من حياتهم.

لقد حوَّل الربيع العربي أسرة المهدي إلى خريف بعثر أوراق الأسرة، ووضعها، وشتت شملها، وخرجوا من هجرة إلى هجرة، ومن غربة إلى غربة، ومن ضياع إلى ضياع، والقدر لهم بالمرصاد، حكم عليهم بالهجرة، والهجرة المضادة وما عاد يستقيم تفكيرهم إلا بالهجرة!

كورونا لا تقتل الحب

اعتاد أن يستيقظ على الساعة العاشرة صباحًا، وككل صباح يحلق ذقنه ويقص شاربه بعناية فائقة.. يتناول فطوره المكون من خبز وزيت وشاي.. ويختمه بقهوته السوداء بدون سكر على أنغام موسيقى أم كلثوم.. يعدل هندامه المتأنق أمام المرآة.. يسرح شعره الناعم الَّذي ما زال أسود فاحمًا لا شيب فيه رغم أنه اقترب من الخمسين.. ولا ينسى نصيبه من العطر.. يترك مصروف البيت على المائدة، ويسرع في تجهيز محفظته الجلدية الَّتي بها آلة التصوير وينصرف.

يقضي يومه متجولًا على قدميه وبين يديه آلة التصوير رفيقة دربه.. بجسمه النحيل وقامته معتدلة الطول.. ولونه الخمري من شدة اشتغاله تحت الشمس طول النهار، متنقلًا بين نافورة ساحة الأمم، وعين الذئاب، والحدائق العمومية نهارًا.. ومسترزقًا بآلته في إحدى الحفلات أو الأعراس ليلًا، ولا يعود إلى بيته أحيانًا إلا بعد أذان الفجر، أنفاسه مخمورة وحركاته غير متزنة.

كان مدخول طارق اليومي وفيرًا جدًّا ثم تضاءل كثيرًا مع ظهور الهاتف المحمول بكاميراته الخلفية والأمامية، لكن مع وصول فيروس

كورونا إلى المغرب انقطع هذا المدخول.. فقد أصبح عاطلًا بعد سنوات من مهنة التصوير.

لحظات شؤم وأوقات عصيبة يعيشها مع زوجته وأبنائه منذ انطلاق الحجر الصحي؛ حيث تنطلق معاناته منذ الساعات الأولى من كل صباح.. أصوات، صراخ وضجيج، أطفاله من جهة يدرسون عن بعد مُحدثين ضجة، وهم في عراك بينهم، عن مَنْ يستعمل جهاز الحاسوب الأول، ومَنْ يستفيد مِنَ الهاتف المحمول.. ومن جهة أخرى امرأته الَّتي تُهَمْهِمُ بكلام غير مفهوم يتأرجح بين السب والتذمر والاستياء، وكلما استقر بِرُكْنٍ من أركان البيت جاءتْ تُطالبه بِالتَّنَحْنُحِ عن المكان أو تغييره لأنها تنظف البيت (ساعة التخمال هاذي) وكأن هذا التنظيف ساعاته لا تنتهي، تتحرك حوله.. تتصرف بمزاج سيئ تحاصره بالتنظيف والتعقيم والتنظيم.. وكأنه كابوس جاثم فوق صدرها، لا يدري لماذا هي متذمرة من وجوده في البيت، وتسلط لسانها (اللاَّذع) نحوه مع أي هفوة يرتكبها، أو تعليق ساخر يتفوه به.

سلوكها هذا جعله متوترًا أكثر من التوتر الذي يعاني منه بسبب الملل والضجر ومتابعة أرقام وإحصائيات مديرية الأوبئة وأخبار ضحايا فيروس كورونا.

عقارب الساعة تشير إلى الخامسة مساءً هي مقدمة الليلة التاسعة عشر، وقف بين النافذة والباب يُحصي الليالي الَّتي مضت.. ويعد بأصابعه الأيام الَّتي قضاها في الحجر الصحي، رفع بصره إلى النافذة فرأى السماء فضاءً رحبًا، والليل يستعد لنشر ظلام.. شديد الحلكة، والنجوم غائبة في عطلة بغياب القمر.. وهو محشور هنا في منزل مساحته خمسون مترًا أشبه بصندوق أو علبة سردين وهم سبعة أفراد، هو وزوجته وأطفاله الخمسة.. تمنى لو كانت عنده شقة لها شرفة يطل منها ويحلِّق ببصره بعيدًا.. بدلًا من هذا الجُحْر الضيق والخانق الَّذي يعيشون فيه!

تذكر أنه في ليلة ظلماء كهذه كان قَدْ فَقَدَ رُشده وتزوج برشيدة، واختارا معًا في بداية حياتهما هذا الجحر مسكنًا لهما، وظلًا ينجبان الأطفال من خلال علاقات تتم في أغلبها وهو في حالة سُكر مُفرط.. مُتَمسكَيْنِ بهذا البيت لسومته الكرائية الزهيدة.

فتح الباب رغبة منه في استنشاق هواء نقي وتحريك عضلات رجليه، جاءه صوت زوجته من عمق المطبخ مزمجرًا:

"إلى أين العزم وليس في جيبك درهم ؟ أم تريد أن تنقل لنا عدوى كورونا وتقتلنا؟"

فقد زمام أمره وأعصابه فصرخ فيها.. وهي ما زالت في المطبخ:

"كورونا أغلقت المقاهي والملاهي، والدولة أغلقت الحدود البرية والجوية والحكومة أغلقت الشركات والمساجد، وأنتِ تريدين أن تغلقي فمي وتكبلي لساني وتكتمي أنفاسي".

خرجت من المطبخ مندفعة نحو الباب ورائحة البصل والطبيخ وأشياء أخرى تفوح منها، كل مَنْ في البيت سَمِعَ صوت الباب يُصْفَقُ بِقُوة وبِعُنف، وهو جامد في مكانه، اقتربت منه صفعَتْها رائحتُهُ النتنة، فهو منذ الحجر لم يستحم! وكيف يستحم وليس في بيتهم حمام، ومرحاضهم لا يصلح للاستحمام إلا صيفًا، وهو الوحيد في الأسرة الَّذي لم يستحم خوفًا من إصابته بنزلة برد وهي تهمة خطيرة في زمن كورونا، التي أغلقت الحمامات الشعبية.

لتستفزه أكثر بكلامها الموجع وضعت يدها على أنفها قائلة:

"وَ رِيحْتَكْ أعْطات يا، يا، يا زير النساء"

ظل يتفرس في ملامح وجهها المرتعش من شدة الغضب، فتبين له أن وجهها رجولي لا علاقة له بالوجه الأنثوي وهو خالٍ من أدوات الزينة والتجميل، كما لاحظ أن في يدها اليسرى سكينًا يلمع.. التزم

الصمت وقد أدرك أن الحجر الصحي يرغمه على إعادة التعرف على زوجته من جديد واكتشافها في أسوء احتكاك بينهما.

طارق رجل نكتة.. خفيف الروح، حلو المعشر.. وفنان مسالم، لا يؤمن بالعنف، ولم يعنِّف زوجته يومًا، بل ولم يضرب أي امرأة ولو بوردة في حياته.. لأنه صاحب مزاج فني.. وعاشق للجمال والليالي الملاح، ويستهويه السهر والطرب.. لذلك لم يصدر عنه أي رد فعل تصعيدي للموقف.. ظل ساكنًا، مما زاد من غيظها وهجومها عليه، فاستخرجت من جيب سرواله ورقة التنقل الاستثنائية الَّتي سلمه إياها المُقَدَّم وهي في قمة غضبها قائلةً:

"ماذا ستفعل بهذه؟ إذا كانت جيوبك فارغة ولا درهم لديك وكل الأماكن مغلقة ما عدا المتاجر، ألم تدرك بعد أنك أصبحت مفلسًا وعاطلًا عن العمل، والعاطل مثل الميت، لا نفع له ولا بركة؟ خذ لك زاوية واركن فيها جسدك"

ثم مزَّقت الورقة شَرَّ تمزيق حتى لا يخرج ثانية.. وقف مَصدومًا ومُتحسرًا.. مُخاطبا نفسه:

"حتى الفُسْحَة سَنُحْرَمُ منها، يبدو أن أشياء جميلة، كانت تجمعنا قد ماتت، وأصبحنا لبعضنا غرباء"

قاطعتْهُ مُلوِّحة بِإحْدى يَدَيْها.. مُسترسلة في الكلام وكأنها نهر قَدْ فاض على ضِفتيه:

"غُرباء؟ غُرباء؟ أصبحنا غُرباء من زمان، منذ خيانتك البشعة، أتذكر يوم خُنتني مع ليلى الخياطة صديقتي الوحيدة، أتذكر؟ منذ ذلك اليوم وأنا أشعر بك غريبًا عني حتى حين يجمعنا فراش واحد، سقف واحد، مائدة واحدة، أصبحنا غرباء.. منذ بدأتَ تبذر مدخولك اليومي على رغباتك وشهواتك، وتترك لنا كل صباح مبلغًا زهيدًا وكأنك تتبرع بصدقة على مجموعة من الفقراء وتمضي إلى مغامراتك كأعزب طائش يعيش لِهَواه.. أصبحنا غرباء منذ أصبحْتُ أشم عطورًا نسوية في بِذلتك، وأجد أثرَ أحمر الشفاه الرخيص كصاحبته في قميصِك (توقفت لحظة تسترجع فيها أنفاسها) انظر الآن إلى حالنا ووَضْعِنا، لو لم أدخر مبلغًا من المال من خلال إعداد وبيع المعجنات أمام القيسارية كل مساء لكنَّا اليوم نمد أيدينا للمحسنين، انظر إليَّ، انظر إليَّ جيدًا، هل هذه هي رشيدة الَّتي كانت كلها حيوية وشبابًا؟ من يراني اليوم وأنا مهدودة ومنهكة يظن أني تجاوزت الخمسين بسببك، بسبب إهمالك ولا

مبالاتك، ما أَشْعَرْتَنِي يومًا بأنني أنثى ككل النساء ولي حقوق، ولا جعلتَنِي أحِس بذاتي كامرأة، ولا احترمْتَ احتياجاتي، بل تركتني على الهامش تتقاذفني الوساوس والأمراض".

حين جف ريقها ولسانها وقعت على الأرض مغمى عليها من شدة الصراخ والبكاء الهستيري.. حملها أولادها إلى غرفة الجلوس، ناولوها كأس ماء واحضروا لها قارورة عطر.. وانطلقت الوشوشة والهمهمة بينهم.

اجتاح كلامها اللاذع جسده كله، وعقله، وقلبه، وبصره، وروحه.. لم يترك فيه عضوًا سالمًا، انعقد لسانه من شدة هول التهم.. وحلت الخيبة محل الهيبة، فبقي في مكانه مُرتبكًا يستعيد كل ما قالته لأنها تفوهت بكلام كثير لم يذكر منه بل لم يتذكر منه إلا القليل! لأول مرة سيدرك بأن الإنسان قد يتسمم من الكلام كما يتسمم من الطعام، وآثار التسمم بادية على جسده.. وجه أصفر ويدان ترتعشان وعرق يتصبب من مسام جبينه.

لم يبرح مكانه، ظل ساكنًا لا يدري أين المفر؟ كل الطرق مسدودة وهو محاصر، كورونا أمامه وزوجته خلفة وليس له ما يستعيد به كرامته، ظل في شروده إلى أن جاءت ابنته الصغرى تدعوه للعشاء، فكر بملامح

عابسة، ثم لبَّى الدعوة، لكن بسبب اضطرابه إلى حد الرعاش لم تكن له رغبة في الأكل فانزوى في ركن وظل يتأملهم، ولأول مرة سيكتشف أنَّ زوجته تأكل بشراسة وبشراهة، وأنَّ ابنته الصغرى الوحيدة الَّتي تهتم به وتتجاوب معه.. وأن أبناءه الآخرين يهملونه، ويشكلون حِلفًا مع أمهم ضده ويأتمرون بأمرها.. وأنَّ أثاث بيته قديم جدًّا، وأن بيتهم كجحر في أسفل عمارة لا تدخله الشمس إلا نادرًا.. وفي الأخير تأكد أنَّ وجوده بينهم لا معنى له، فقرر مغادرة البيت ومواجهة رجال الأمن وفيروس كورونا على البقاء معهم.

فتح الباب تقدم خطوتين ثم وقف يتأمل، الظلام دامس رغم أضواء المصابيح الخافتة والمتباعدة.. الزقاق مقفر وخالٍ من المارة، يذكِّره بمدن الأشباح بل حتى الأشباح لا تستطيع أن تتجول بين هذه الشوارع الموحشة بظلمتها وسكونها، والصمت يخيم على المكان.. ما عدا قطط تبعثر القمامة بحثًا عن طعام، وكلاب بلا صاحب محتمية ببعضها.

ساعتها ناجى نفسه متحسرًا بصوت خافت:

"إلى أين المفر يا طارق؟ إلى أين المفر؟ جاءك الموت يا تارك الصلاة كما كانت تقول جدتي في مثل هذه المواقف، اليوم جاء وقت الحساب،

وعليك يا طارق أن تدفعه بصدر رحب، أنت الَّذي أهملت واجباتك وتركت المركب بلا ربان.. عد إلى مركبك وقُدْهُ باهتمام واتزان".

بقي مترددًا، لكن حين التفت خلفه فوجئ بأطفاله جميعهم واقفين مبتسمين وفي عيونهم رجاء وأمل في بقائه معهم وبينهم.. وخلفهم زوجته هادئة يبدو أنها تشعر براحة نفسية بعد أن أفرغت كل ما في صدرها من كلمات ظلت مكتومة في قلبها لسنوات.

نظر إليها وقد أخذت حدقتا عينيه تضيقان وجبينه ينكمش وحاجباه يتقاربان تحسبًا لرفضها، منتظرًا موقفها، تفاعلت رشيدة مع موقف أبنائها وابتسمت أساريرها، إشفاقًا على أطفالها، وتضامنًا معهم أو ربما حبًا فيه!

بابتسامة مفعمة بالأمل لا تفارق شفتيها قالت له:

"العشرة لا تهون إطلاقًا، والحب لا يموت أبدًا.. حتى وإن خنقه فيروس كورونا أيام الحجر لا يموت أبدًا.. سنحصل على الدعم من صندوق كورونا، وسوف نخلق نعيمنا بصبرنا وتلاحمنا حتى تنقشع هذه الغمة.. سنحلم وسنظل نحلم بالحياة بعد كورونا، وبمستقبل أبنائنا،

فنحن لا نملك إلا الحلم، وفي الحلم وفي أثنائه سنشعر براحة نفسية وجسدية، ومنه سنستمد القوة لمتابعة حياتنا" .

لا أحد يدري كيف يقضي طارق باقي أيامه في الجُحْرِ بعد تمديد الحَجْرِ الصحي إلى شهر ثانٍ وبين ثناياه ضيف سنوي متميز هو شهر رمضان.. لكن مع وجود زوجة صالحة صبورة وأم فاضلة قنوعة ستظل الأسرة متماسكة وصامدة رغم الحجر والفقر و...

إنَّها الغيرة فقط

ما بها الأيام تتعثر بي، وكأنها متضايقة من وجودي، ما به عيد ميلادي يمضي متسللًا باستحياء، مخفيًا ملامحه وكأني أسرق الأيام والساعات من الأجيال الصاعدة.

انكمش الحاج المذكوري في مكانه بعد حوار ومناجاة طويلة مع ذاته، متحسرًا على حياته؛ إذ لا أحد من أبنائه تذكر عيد ميلاده، وقد اعتادوا أن يستعدوا لعيد ميلاد بعضهم قبل الموعد بيومين أو ثلاثة أيام.

من عاداته أن يصلي كل يوم في المسجد مع الجماعة، لكن في هذا اليوم مكث في البيت، في انتظار تهنئة مرفقة بابتسامة من هذا أو من ذاك! وهكذا صلى الظهر في بهو المنزل، وصلى العصر في غرفة الضيوف، وها قد اقترب موعد صلاة المغرب ولا أحد تذكر عيد ميلاده أو حرك ساكنًا نحوه.

تساءل مع نفسه ألا يحق للشيخ أن يحتفل بذكرى مولده، صحيح أن أجدادنا ما احتفلوا به ولا حتى آباءنا، ولم يسبق لي أن احتفلت به طوال شبابي إلا مرة أو مرتين، فلماذا أصر اليوم على الاحتفال؟

ابتسم بشماتة ثم قال:

ألا يحق لنا نحن الشيوخ أن نستفيد من بدع هذا العصر، ونقلد الغربيين في بعض الطقوس الاحتفالية.

فجأة رن الهاتف رنة واحدة، أعاد الرنة معلنًا عن وصول رسالة نصية، انقض على هاتفه كما ينقض الأسد على فريسته معتقدًا أن أحد أبنائه يبعث له تهنئة، فكانت الرسالة الأولى والثانية من مكتب 17) (17يخبره فيها أنه مسجل في اللائحة الأولى الَّتي تدشن عملية التلقيح الَّتي ستنطلق في الغد بالمركز الصحي القديم المتواجد قرب ملعب كرة القدم بالحي، وعليه أن يلتحق صباحًا إلى المركز مصحوبًا ببطاقته الوطنية.

بعد أداء صلاة العشاء لم تكن له رغبة في الكلام، ولا شهية للأكل، معلنًا عن استعداده للنوم دون عشاء، فجأة انطفأت الأضواء وخيَّم صمت رهيب على البيت، فقط صوت زوجته الَّتي كانت تحذره من

التحرك خوفًا عليه من الاصطدام بأثاث المنزل، ظل يسمع ولا يجيب، يسمع ولا يهتم، حتى الوشوشة المنبعثة من هنا وهناك، لم يهتم بها، ولم يسترق السمع لمعرفة ما يدور، بعد لحظات جاءت حفيدته ذات التسع سنوات، وفي يدها مصباح يدوي بسيط، تطلب منه أن يرافقها إلى قاعة الضيوف لأنها تخشى أن تبقى بمفردها في الظلام، بتثاقل قام ملبيًا طلبها، ظلت ترافقه ممسكة بيده وضوء المصباح اليدوي يقودهما في الممر، بمجرد ما وصولهما إلى باب القاعة، انطلقت أضواء المصابيح، وأصوات الموسيقى، وصراخ الأبناء والأحفاد محتفلين بعيد ميلاده السبعين، فتحول حزنه بسبب ظنه إلى دهشة، تحولت دهشته إلى فرحة، وارتسمت البسمة على شفتيه كصبية تُزَف إلى حبيبها، ونسي الظن، وبعض الظن إثم، وانخرط محتفلًا مع الجميع.

قبل الساعة السابعة بعدة دقائق من صباح الغد، كان الحاج متواجدًا بباب مركز التلقيح وكله تفاؤل منتشيًا بحفلة الأمس، وكان أول شخص يُسجل، وأول مُسَجل يُلقح بمنطقته، ثم عاد إلى البيت بعد عملية التلقيح متثاقلًا في مشيته، يشعر بالحمى ولا أثر للحرارة، يعاني من صداع في الرأس بلا سبب، ويكاد لا يرى أمامه إلا بصعوبة، ظلت زوجته تتابعه بخوف وهلع وهو ممدد على السرير، تحوم حوله تفحص أعضاءه، وتهطل عليه بأسئلة لا أول لها ولا آخر، وهو لا يجيب إلا

برأسه أو بأصابع يده اليمنى، لأن يده اليسرى انتفخت قليلًا، اتصلت بطبيبه وأبلغته بحالته الصحية، فأعطاها هاتف وعنوان المركز الَّذي يجب أن ترافقه إليه.

فجأة وقفت تنظر إليه مليًّا، وتمعن النظر فيه، وبصوت خافت يكاد يكون همسًا قائلة له باستغراب:

الحاج أراك بدون نظارتك الطبية؟ أين تركت نظارتك؟ وكيف جئت من مركز التلقيح بدون نظارتك؟

ظل صامتًا ينظر حوله ويفكر، ينظر حوله ويبحث في جيوبه، وبصوت جهوري مصحوب بانفعال صاحت:

(وفين أنظاظرك الحاج؟) ضاربة كفًا بكف بل ضاربة بكفيها فخديها، وأخيرًا ضاربة بكفيها خديها معلنة عن الخسارة:

(واش كشطوك الحاج؟ وا فين تليفونك؟)

أخرج الحاج الهاتف من جيبه وسلمه لها دليلًا على عدم تعرضه للسلب والنهب، تسلمته منه، ولاحظت أن صوت الهاتف مكتوم، و قبل أن تسأله انتبهت أن هناك سبع اتصالات من رقم واحد، رقم مجهول بلا اسم.

الحاج يئنُّ بشدة من الصداع الَّذي يسحبه في رأسه، تركته يئنُّ وفتحت الخط بمجرد رنين الهاتف، لأن الظنون ذهبت بها بعيدًا، والشك قادها نحو ماضيه.

عبر الهاتف جاءها صوت حريمي فيه عذوبة قائلًا:

"الحاج المذكوري كيف حالك؟، لقد نسيت فوق مكتبي نظارتك الطبية وبطاقتك الوطنية"

أغلقت الحاجة ازهور الخط بسرعة خاطفة، كانت تريد أن تلملم أفكارها المتضاربة، وأن تجمع كرامتها الَّتي تبعثرت، وهي تسمع امرأة تخاطب زوجها دون تكلف أو مجاملات، يبدو أن الغيرة عند الحاجة ازهور قد تجاوزت كل الحدود.

أعادت الاتصال بعد لحظة تركيز، معلنة لصاحبة الصوت أنها الحاجة ازهور زوجة الحاج المذكوري، متسائلة أين ترك الحاج نظارته وبطاقته ومن أنت؟

فأجابها الصوت:

"أنا الدكتورة إلهام المسؤولة عن مركز التلقيح، طلبت من زوجك أن يستريح بعد الحقنة بضع دقائق، لكنه مضى دون أن يحمل معه بطاقته

الوطنية ونظارته الطبية، بلغيه سلامي، وقولي له حاجياتك في درج مكتبي في أمان" .

عادت النظارات إلى الحاج فذهب صداع الرأس.. لكن بقيت كل الوساوس عند الحاجة!

عادت البطاقة الوطنية والحقيقة الكاملة، لكن حلت محلهما الهواجس والشكوك عند الحاجة ازهور.

يبدو أن الحاج المذكوري ينتظره حساب عسير ومراقبة لصيقة، رغم أنه في السبعين من عمره، ما زالت الحاجة تغار عليه بقدر ما تخاف من قراراته، تشك فيه بقدر ما تثق في رجاحة عقله، إنها الغيرة فقط.

غيرة الأزواج ليس لها حدود ولا ضفاف، ولا تعترف بالسن مهما بلغ، إنها تمتد من سن العشرين إلى ما فوق السبعين.

لذلك بدأت الحاجة ازهور تُحصي حركات الحاج وسكناته، وأدخلت صلاة الجماعة في المسجد تحت المراقبة والتدقيق في الوقت.

إنها لم تغفر له ماضيه، أيام كان جذابًا ووسيمًا، يتبختر بقوة شبابه وجمال أناقته، يتباهى بمنصبه المرموق، يصول ويجول، ينسج قصصًا ويخوض مغامرات مع فتيات مغربيات وأجنبيات في أوائل السبعينيات،

ساعتها كانت تنحني للريح للحفاظ على بيتها، ولضمان العيش بجانبه، أما اليوم فهي الَّتي تجعل الريح تنحني لها بعشرتها الطويلة، وعزوتها بما أنجب بطنها من أولاد.

الحاجة ازهور دائمًا تقول:

الماضي لا يموت، بل يقفز إلى الحاضر بقوة عند الضرورة، والحاج له ماضٍ ما زال متلألئًا في ابتسامته ومرسومًا على شفتيه، ومركونًا في إحدى زوايا ذاكرته.

فعلًا تنتظر الحاج المذكوري أوقات عصيبة، وحسابات دقيقة تجمع بين الماضي والحاضر.

دار بسمة للنشر الإلكتروني

دار مغربية، رقمية، تأسست في 2017

دار بسمة للنشر الإلكتروني من أهدافها مساعدة الشباب المغاربة والعرب على نشر إبداعاتهم، وإيصال أصواتهم وتغريداتهم إلى العالم كله، كما تطمح لاكتساح عالم النشر الإلكتروني في كل الأقطار العربية..

كما أننا –في محاولة منّا لتغذية شريان الثقافة– نسترشد بالضمير الحي من أجل نشر المحتوى الثمين، حاملين على كواهلنا رسالة التنوير الحقيقي، ومدركين كل الإدراك لقيمة القلم النبيلة، لذلك كنا حريصين على نشر كل ما هو قيّم. في دار بسمة للنشر الإلكتروني نساند المؤلفين وندعمهم لإيصال إبداعاتهم لملايينَ من القراء، ونرشدهم إلى آليات فنية تعينهم على تحسين أساليب الكتابة والإبداع. وتقريبا لهذه الغاية تقوم الدار بتنظيم مسابقات متعدّدة، والإشراف عليها مجانا من أجل اكتشاف المواهب الشابة التي تستحق أن تُنشرَ أعمالُها بينَ القرأَةِ والمثقفين، وذلك تشجيعا لهم على الاستمرارية في الكتابة الإبداع.

هـذا العمـل الإبـداعي برعايـة داربسـمة للنشـر الإلكترونـي بشـــراكة مـــع جـــروب ملتقـــى الأقـــلام المُبدعـــة...

للاطلاع على الصفحة الرسمة لداربسمة للنشر الإلكتروني على الفيسبوك، اضغط على الأيقونة.

للاطلاع على جروب ملتقى الأقلام المبدعة على الفيســـبوك، اضـــغط علـــى الأيقونـــة.

المحتويات

الإهداء 6

العالقون 7

آه يا إبْراهيم..... 56

صديقان ثالثهما كورونا 71

كورونا لا تقتل فقط 77

العياشي والعيش الكريم 82

صفاء بين الوباء والبلاء..... 87

الإمام مولاي الطاهر 92

عودة منير إلى الحي 98
نَعْيٌ في الفيس بوك 104
سلمى اليوتيوبرز 109
شجرة غيثة أم الغيث..... 115
بباب المستشفى 121
الهجرة بين القضاء والقدر..... 127
كورونا لا تقتل الحب 132
إنَّها الغيرة فقط 142

نور الدين النبهاني

العالقون زمن كورونا

العالقون..

من هم هؤلاء العالقين؟!

العالقون زمن كورونا هم الذين وجدوا أنفسهم عالقين بين السماء والأرض ..

سجناء بلا تهمة ولا جُرم .. في سجن بلا أسوار ولا جدران ولا أبواب، فقط حدودا مغلقة بين الدول، وأبوابا موصدة في وجه العموم .. لا عبور .. لا تنقل.. لا زيارات ..

وظل هؤلاء العالقين حائرين في تصنيف أنفسهم .. لا هم سجناء ولا أسرى.. ولا هم في خانة الرهائن .. ولا في سجل اللاجئين.

بسبب فيروس كورونا كوفيد 19... هذه الجائحة التي حاصرت الكل من جميع الجهات.. طيلة فترة الحجر الصحي الشامل، حيث عاشت البشرية حالة استثنائية.

فجأة .. يصبح المواطنون مرضى ممددين على أسِرة .. في غيبوبة بالمصحات ..

ويجد السياح أنفسهم عالقين بين العواصم والمدن ..

وتجد الشعوب نفسها محتجزة في مدنها .. ومعتقلة بين جدران منازلها .. معطلة وعاجزة.

حيث أغلقت الدول حدودها و أجواءها.. والمدن طرقها ومنافدها .. والبيوت أبوابها ومنافذها ..

وعاش الجميع معلقا وعالقا ينتظر رفع الحجر الصحي بفارغ الصبر .. والعودة الى الحياة الطبيعية، وأصبحت الحياة الطبيعية أمنية يتمناها العالقون.

دار البسمة للنشر الالكتروني
+212 771 814 934
basma24design@gmail.com
bassmabook
www.darbassma.net